

ديوجين

مصباح الفكر

رسالة اليونسكو



مطبوعات اليونسكو

تصدر عن مركز مطبوعات اليونسكو ومجلة رسالة اليونسكو

١ شارع طلعت حرب ـ القاهرة

العـدد الثالث عشر
السـنة الخامسـة
١٩٧١



ديوجين

مصباح الفكر

مقالات هذا العـدد

صفحة



قبل اختراع المطبعة ، كانت مهمة نشر الفكرة شاقة ، فقد كان نسخ المؤلفات باليد ، هو الوسيلة الوحيدة القادرة على النشر ، وكان للرواة وحفظة المأثورات والقصائد الشعرية مكانة مرموقة فى المجتمع ، لأنهم كانوا يتنقلون بين أروقة القصور ومجالس الأباطرة والحكام ، وندوات السمر ، بأرق ما انتجه الشعراء من الشعر ، وامتع ما زخرت به الكتب من الملح ، وارشق ما خلفته القرائح من الملاحظات •

غير أن نسخ المؤلفات لم يكن مهمة سهلة ، ولا ميسرة لكل الناس ، فقد كانت تحتاج الى جهد ووقت ومال ، ولم يكن يقدر على ذلك الا الخاصة ، أو المدارس الفكرية التى انتشرت فى المجتمع القديم •

لكن اختراع المطبعة ، وتطور آلات الطباعة ، يسر للمؤلفات ان تطبع ملايين النسخ فى أيام ، وعلى ورق مصقول ، وبحروف ظاهرة ، بل مصحوبة بالصور والرسم فى بعض الأحيان •

ولم تعد المؤلفات تعتمد على النسخ ولا الرواية ، لتجد طريقها الى الناس •

العلم نقل الفن إلى ملايين الناس
لكن "روح الفنان"
لا تزال عصيّة على الوسائل العلميّة

بقلم • عبد المنعم الصاوى

وصاحب تطور الطباعة تطور هائل فى وسائل التوزيع ، فانتشرت المطبوعات فى كل مكان ، حتى فى القرى الصغيرة النائية •

واذا كانت المطبعة قد نجحت فى أن تنقل المؤلفات من النسخ الاصلية الى ملايين القراء ، فان الوسائل الاخرى التى ساهمت فى نقل الانتاج الفنى ، لم تستطع حتى الآن ان تنقل الفن ، بنفس الدقة ، التى استطاعتها المطبعة •

فالفن التشكيلى عندما ينقل الى الناس ، ينقل عن طريق تصويره وطبعه ، وتوزيعه فى المتاحف والمكتبات •

وقد شهدت السنوات الأخيرة من هذا القرن ، تطورات هائلة فى نقل الأعمال الفنية لكبار الفنانين عن طريق تصديرها وتوزيعها •

لكن هل تستطيع الكاميرا أن تنقل لوحة لرافائيل مثلا بنفس الدقة ، وبنفس التفصيلات ؟

هل تستطيع الكاميرا أن تنقل ما فى اللوحة من الوان ؟

فان استطاعت ، فهل تتعمق مافى اللوحة من ابعاد ، وظـــلال ، وتأثيرات ، تختلف باختلاف زوايا الرؤية ، ودرجة الاضاءة ، ومكان العرض ؟

فان استطاعت ذلك كله ، فهل الكاميرا قادرة على أن تعطى « روح الفنان » التى يكون قد أضفاها على عمله ؟ الحزن أو البهجة ٠ التفاؤل والتشاؤم ٠ القلق أو الهدوء النفسى الآمن المستقر ؟

ان الكاميرا لاتزال عاجزة عن اعطاء ذلك كله ، والخطر الذى يخشاه المفكرون ورجال الفنون ، يكمن فى أن نشر الفن ، بغير عناصره الأســاسية ، قد يطبع مزاج الناس بطابع لايتفق مع روح الفن ، ودقة الأحساس ، والقدرة على تكشف التفصيلات، والوقوف على دلالاتها النفسية والفنية ٠

وعندما تنتشر بين الناس ، ملايين الصور للأعمال الفنية ، بغير هذه العناصر ، التى تميزها وتقيم شخصيتهم ، فقد يؤدى ذلك الى هبوط مستوى الذوق عند الجماهير ٠

والأخطر أن الانطباع الفني الذي تتركه هذه الصور ، قد تحدد للرجال والنساء والاطفال ، حدودا خفية لاتتجاوزها أخيلتهم عن الأنتاج الفني الأصيل ، فلا يتصورون الفن في حقيقته ، الا فى أطار ما تجود الكاميرا عليهم به ٠

ومن يدرى ، قد يرى بعضهم الأعمال الاصلية في المتاحف التى تعرض فيها ، فينكرها ، لأن حدود فهمه للعمل الفنى ، قد استعبدتها الكاميرا ٠

فالذوق العام اذن ، قد يسقط ضحية هذا النوع من نقل الأعمال الفنية ذات القيم النادرة ٠

لكن هل معنى هذا أن نسقط من الاعتبار ما استطاعته الكاميرا ووسائل النشر الفنى ، من تطور الذوق العام وحمل الملايين على اقتناء الأعمال الفنية ؟

ان مجرد الاقتناء فى ذاته ، له دلالته على التطور ، وأيا كان النقص فى صور الاعمال الفنية ، فان انتشارها في ملايين البيوت ، ووضعها على جدران المنازل ، لتقع

عليها عيون الابناء والبنات والزوار ، بدلا من أن تقع عيونهم على جدران خالية صماء . هذا وحده تطور يستحق التشجيع .

وسيأتى يوم قريب ، نرى فيه الوسائل العلمية قد حققت ما نرجوه من تحسين وسائلها فى نقل الأعمال الفنية واشاعتها بين الناس .

لكن علينا أن نعترف أن هذه الوسائل لاتزال حتى الآن ناقصة عن نقل ((روح الفنان)) مع ما تنقله من خطوط وألوان وظلال ، بمختلف الاحجام .

ان أعمالا فنية أخرى تتعرض لمثل ما تتعرض له الفنون التشكيلية عندما تنقل بالصـــــورة .

المسرحيات مثلا عندما تنقل على شاشة التليفزيون ، والاوبرات عندما تنقل بالراديو ، والموسيقى عندما تسجل على اسطوانات .

كل هذه الاعمال تنقل بهذه الوسائل ، فتصل الى الناس ، حيث يكونون ، فى أى وقت يشـــــاءون .

لكن هل يتم النقل بنفس القدر من الدقة التى تؤدى بها هذه الفنون فى أماكنها الأصـــلية ؟

ان هذه الوسائل لاتزال عاجزة عن نقل ((روح الفنان)) على موجات الأثير أو على أشرطة التسجيل أو على الأسطوانات .

لكنها مع هذا ضرورية ولازمة لنشر الفنون .

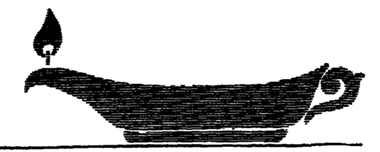
والذين يشفقون على الذوق العام ، من أن يحبس فى اطار من عجز هذه الوسائل عن النقل الفنى اللازم ، عليهم أن يدركوا ان التطور الأجتماعى فى العالم يرتب للناس حقوقا فى الاستمتاع بمباهج الحياة ومتعها ، وفى التعرف على ألوان الفن المختلفة ، بالوسائل المتاحة .

وسيجد القارىء الى جوار المقالات القيمة التى يضمها هذا العدد من مجلـــة ((ديوجين)) ، مناقشة اوسع لموضوع النقل الفنى ، فى مقال مفصل للاستاذ راءول برجمان نقله الى العربية الأستاذ الدكتور زكريا ابراهيم .

وعلى كل حال فان تكن الوسائل العلمية لاتزال ــ كما أو نوعا ــ غير كافية ، فان العلم الذى استطاع أن يحقق سيادة الانسان على الكون ، والذى صعد بالانسان الى سطح القمر ، لن يعجز عن تحقيق أمل الانسان فى نقل الفن الى الناس على وجه أكمـــل .

والله يوفق العلماء الى تحقيق الغاية ، والوصول الى القصد .

عبد المنعم الصاوى



المعارف والعلوم
فى حوض البحر الأبيض المتوسّط



بقلم :
فرنشيسكو جابريلى
ترجمة :
د. شكرى عياد

المقال فى كلمات

البحر الأبيض المتوسط ملتقى الشرق بماضيه الزاهر ، والغرب بحاضره اللامع ، على شواطئه نشأت أقدم مدنيات العالم • ومن مهد الحضارة انتشرت الشعلة الوضاءة شرقا الى بلاد ما بين النهرين ، وشمالا الى الأغريق ثم الى روما • ولقد ظل البحر الأبيض كذلك فى العصور الوسطى مصدر الاشعاع الذى بدد الظلام الحالك فى أوربا • ثم اذا بالاسلام يأتى بنور ساطع جديد ، واذا بالاوربيين يرتشفون من مناهل علم العرب فى صقلية ، وفى الاندلس حيث ازدهرت قرطبة وطليطلة • لقد تلقفوا من العرب ما أقاموا عليه نهضتهم الرائعة الحديثة ، وهاهم أولاء علماء بيزنطة يحملون ذخيرتهم العلمية الى مختلف انحاء أوربا فيوقظونها من سباتها العميق ، لتبدأ نهضة تتقدم رويدا رويدا حتى تبلغ أوجها فى عصر العلم الحديث •

وينوه الكاتب فى مقاله بفضل ثقافة البحر المتوسط فى العصر القديم والعصور الوسطى ، ووحدتها فى كل من العصرين ، مشيدا

بالثقافة الاسلامية فى العصر العباسي معتبرا اياها اثمن ماتركته للخلف ، ومشيدا كذلك بالدور الثقافى الذى لعبته مصر الفاطمية فى نشر ثقافة البحر المتوسط حينما كانت مصر مركزا من مراكز الاشعاع العلمي والفني • ويشير الكاتب كذلك الى امتزاج الثقافات المصرية والاغريقية والعربية واللاتينية امتزاجا اخرج منها وليـدا ثقافيا مرت عليه أحداث الزمان الجسام دون ان تئده ، أو تؤثر فى كيانه ، أو تنقص من بهائه •

لصديقنا العالم الدكتور طه حسين كتاب ظهر منذ نحو ثلاثين عاما بعنـوان « مستقبل الثقافة فى مصر » قدم فيه فكرة خلابة يصعب قبولها جملة كما يصـعب رفضها جملة : فكرة العلاقة بين الثقافة والعلم والأدب فى بلاده وبين الغرب ، أو بعبارة أدق : بينها وبين ثقافة حوض البحر الأبيض المتوسط التى التقى فيها الشرق بالغرب • فعنده أن مصر القديمة ومصر الاغريقية وحتى مصر العربية والمسلمة كلها أسهمت فى هذه الثقافة التى يمكننا أن نسميها « بثقافة البحر المتوسط » ولم تكن مرتبطة بالشرق وحسب ، كما طاب للعلم التقليدى ان يصفها • ولا شك أن هـذه الالتفاتة المفاجئة نحو الغرب مقبولة اذا كنا نتحدث عن العصر الهيليني ، أما اذا كان الحديث عن مصر الفرعونية أو مصر الفاطمية أو مصر المملوكية فاننا لانستطيع أن نغمض أعيننا عن جميع جوانب الارتباط بينها وبين الشرق الأوسط : بينها وبين بلاد مابين النهرين على عهد البابليين ، وبينها وبين بلاد العرب على عهد النبى محمد ، وبينها وبين فارس على عهد العباسيين . ولكن ميزة هذا الكتاب ـ كميزة معظم كتب طه حسين ـ هى تركيزه، ولو بشىء من الصلابة والمبالغة على هذه الحقيقة التى لاتنكر : أعنى وحدة ثقافة البحر الأبيض المتوسط فى العصر القديم بل فى العصـر الوسيط أيضا ، وان كان هذا مناقضا لآراء هنرى بيرين ، وحدة تتجاوز الاختلاف فى العقيدة الدينية والولاء السياسى ، والاختلاف فى اللغة والعادات ، لتمس أعمـاق الفكر الانسانى ، أو قل لتمس مشكلاته العقلية ولتمس ترابه الروحى • وهذه الصفة المشتركة (أو السمة الجامعة) تظهر بجلاء فى تقدير المعرفة وفى الدرس وفى تعهد المعرفة على مدى القرون أكثر مما تظهر فى الأدب والفن •

فى البدء ، ولدت المعرفة فى الشرق ، فى أرض النهرين ، بل وفيما وراء ذلك شرقا ، هذه حقيقة لاريب فيها . ولكنها بعد ذلك اتبعت طرقا لايزال من الصعب تحديدها بدقة ، لتغيض على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، حيث مرت انتعاش

وازدهار لامثيل لهما فى بلاد اليونان • ومع أن اليونان الخالدة مدت شعلتها نحـــو الغرب عن طريق روما فقد ردت معظم دينها الى الشرق فيما بعد ، بما قدمت اليه من علوم الهيلنية وفلسفتها ، حيث استطاع الشرق أن يتعرف جانبا من تراثه ، وقـــد أنعشته وأغنته عبقرية الهيلنيين • وهذا القسم من التراث الكلاس ـ كما هو معروف ـ هو أهم ما أحيته الثقافة الاسلامية فى العصر العباسى ، وهو أثمن ما تركته للخلف • ومن ثم عاد التيار من فارس وبلاد ما بين النهرين مغيرا مجراه ـ بواساطة السريان أولا ثم العرب مسيحيين ومسلمين فيما بعد ـ ليفيض ثانية نحو مياه ذلك البحر الأبيض المتوسط الذى ساعد على ازدهاره من قبل •

وتشهد الحقبة الاخيرة من العصور الوسطى مصدرين لهذا التراث اليونانى الشرقى ينبثقان على طرفى البحر الأبيض المتوســـط : بيزنطه والأندلس وكانت الاخيرة تطلب من بيزنطة ـ بالتحديد ـ نصوص المعرفة القديمة وآثارها (ويكفى أن نذكر قصة كتاب ديسفوريدس فى صورتيه اليونانية والعربية فى القرن العاشر)، وتجمع فى أقصى الغرب من أوربا كنوز المخطوطات التى بهرت أوربا كلها من بعد بنور جديد • كذلك لايسع المرء أن يغفل الدور الذى لعبته مصر الفاطمية ـ فى القرون التى سبقت القرن الحادى عشر ـ بثقافتها المتنوعة العناصر ، الخارجة على العقائد الشائعة (ومما يؤسف له أنها كادت تمحى فيما بعد برد الفعل السنى فى عهـــد الأيوبيين والمماليك) ، وقد استعارت الكثير من تراث العصر القديم المتأخر فى العلوم، الصحيح منها والفاسد . هذه الثقافة وهذه المعرفة الفاطمية ـ التى تجمع أشتاتها ويعاد بحثها فى الوقت الحاضر ـ قد لعبت ولا شك دورا بارزا فى نشر معرفة البحر المتوسط (أى اليونانية الهيلينية العربية) . وان فى الرياضيين والاطباء الذين خلفوا علماء مصر العظام ، ويمثلهم ابن الهيثم أروع تمثيل (وهو فارسى المولد عاش وعمل فى البيئة الفاطمية) لدليلا على قيمة هذا المركز من مراكز الاشعاع العلمى والفنى. فهذا ما كانته مصر على عهد خلفائها غير السنيين ، وهو أكثر عهود الاسلام فى البحر الأبيض المتوسط اشراقا •

وسرعان ما تجلى للغرب اللاتينى مبلغ ثراء هذه المعرفة الاسلامية (من طب وفلك ونجوم ورياضة) التى ألبست التراث القديم لغة القرآن وتعهدته ونمته فى هذه اللغة • وكان أول رواد هذا الاتصال وأبرزهم قسطنطين الأفريقى ، وهو مسلم مغربى من رجال القرن الحادى عشر ، قضى آخر أيام حياته راهبا بندكتيا فى دير مونتكاسينو • فبفضل ذلك الرجل الغامض ذى الديانتين واللسانين والثقافتين ، ظهر الطب العربى لأول مرة فى ايطاليا ، وقد استدرك بعض مافات العلم اليونانى • ولابد من الربط بين عمله الذى تم فى كمبانيا فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر وبين ازدهار المدرسة الطبية فى سالرنو ، التى بلغت أوجها فى هذا القرن نفســـه وطابقت هذا العلم العربى بما تلقته من التراث اليونانى مباشرة عن طريق بيزنطة

والسنن اللاتينى الذى لم ينقطع طوال العصور الوسطى المتأخرة • واذا نحينا جانبا مشكلة صحة نسبة كتابات قسطنطين اليه (والحق أنه ظلم حين أعتبر سارقا لأحياء عنده) فيجب أن يحسب له أنه أول من نشر أنباء السنن العلمى الاسلامى العظيم الى قلب البحر الابيض والعالم المسيحى ، وفى الوقت نفسه كان هذا السنن يمتد من فارس الى المغرب واسبانيا • وهناك بالضبط أتيح لما كان عملا فرديا قام به هذا العالم وقبله من تلاميذه بين منتكاسينو وسالرنو أن يغدو فى القرن الثانى عشر ذلك العمل الجماعى الرائع الذى قامت به مدرسة طليطلة ، فكشفت للعالم المسيحى عن كنوز العلم والفلسفة اليونانيين العربيين •

وهكذا كان ما تم فى عاصمة القوط الغربيين القديمة على ضفاف نهر تاجة ، اثر اعادة الفونسو السادس لها الى المسيحية بعد ثلاثة قرون ونصف القرن من الحكم الاسلامى ، كان صفحة من ألمع صفحات تاريخ أوربا الثقافى بل تاريخ البحر الابيض كله ، لأن الامر كان ــ على التحديد ــ أمر تراث متوسطى كلاسى وشرقى فى الوقت ذاته . واذا كان من الممكن أن نبدأ منذ الآن تلك الفكرة القديمة عن « مدرسة » أو « كلية » للمترجمين فى طليطلة ، نظمها كبير الأساقفة دون رايموند ، فانه من الثابت على كل حال أن جماعة من العلماء من جميع أرجاء أوربا قد واصلوا عملهم هناك بحرية أثناء القرن الثانى عشر ، ميسرين للغرب بترجماتهم علم العرب وفلسفتهم ، ومتتبعين اياه أحيانا حتى نماذجه اليونانية • وان أسماء أدلارد الباثى ، وهرمان دلمان ، ودومنيكو جند يسالفى ، وجون الأشبيلى ، ومارك الطليطلى ، وكثير غيرهم، لتؤلف لائحة شرف يتصدرها ذلك الأسم اللامع ، اسم جيراردود آكريمونا العظيم ، وهو مواطن من لومبارديا ساقه شغفه بالتراث القديم حتى طليطلة واستطاع خلال عشرات السنين من الدراسة الجادة والعمل الدءوب أن يروى ظمأه الشخصى الى المعرفة ويمد الأجيال التالية بروائع بطليموس وابن سينا ، واقليدس وجالينوس ، والكندى والفرغانى وكثير غيرهم من متقدمى العلماء والفلاسفة فى الشرق فى القرون الوسطى ، الذين لم يعودوا بعد مجرد أسماء عند العالم الغربى بل أصبحوا نصوصا وأفكارا ومذاهب درستها عصورنا الوسطى ــ بدورها ــ فى شغف واقبال •

وفلسفة القرن الثالث عشر وعلومه ــ وهو العصر الذى استوى فيه فكر دانتى وعلمه ــ مشبعان بهذا التراث الغربى . فارسطو ليس عربى الأصل فى جانب منه (يجب ألا ننسى أن بيزنطة أوجدت دائما اتصالا مباشرا مع الأصول اليونانية) ، واكبر شراحه عربى ، أعنى ابن رشد الذى كان القديس توما يناقضه وهو مع ذلك يتقبل كثيرا من نظراته وطرائف تفكيره ، وقد ترددت أصداء هذا النصر للعلم العربى فى الغرب اللاتينى طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وأدت الى رد فعل من قبل بترارك باسم اللاتينية والمحافظة الدينية ، وقد بدا له أن كليهما مهددان . ولكن هذا ليس مجال تتبع مصير العلم الشرقى والفلسفة الشرقية حتى عصر النهضة الأوربية ،

حين أخلى الأول مكانه للعلم الغربى التجريبى الجديد ، وبقيت الأخرى حية فى شكل الرشدية اللاتينية حتى فجر العصر الحديث •

ولكن لنعد الى العصور الوسطى والى ما تمتعت به من ازدهار رائع وتداول عجيب للثروة الثقافية بعد سنة ألف ، فيجب ألا ننسى موطنا آخر ومعملا لهـذه التبادلات عظم أمره فى صقلية فى عصرها الذهبى سياسيا واجتماعيا وثقافيا ويكفى (لئلا نردد أشياء معروفة) أن نتذكر تفسير الثقافات الثلاث ــ اليونانية واللاتينية والعربية ــ الذى ساد فى صقلية أثناء العصر النورمندى ، والثمار العملية التى آتتها هذه الحركة التوفيقية • فهذا هو عصر الترجمات الصقلية عن اليونانية والعربية ، عندما ترجم أمير البحر بوجينيو « مناظر » بطليموس الى اللاتينية عن الاصل العربى، وترجم هنرى أرسـطيس « فيدون » أفلاطون عن اليونانيـة مباشرة ، وعندما جمع الادريسى، الشريف المراكشى، مادة جغرافية فى ظل مرش روجر ، وقدم لها بمقدمة اثنى فيها ثناء خالصا على الملك العالم غير المسلم ، ناسيا أمام العلم كل اختلاف فى العقيدة والثقـافة . ويمتد هـذا العالم نصف العـربى من آل هو تفيل الى آل هو هنشتوفن ، فى الجو الثقافى الذى سنعرفه منذ الآن خيرا مما نعرف بيئة طليطلة فى الوقت الحاضر ، وذلك بفضل جهود أمارى وهاسكنس والمرحوم دى ستيفانو ومس جاميسون . ولاشك أن دراسة بيئة طليطلة ــ دراسـة مستوعبة ــ أشـق لـكثرة الشخصيات هناك وللتنوع الغزير فى المادة العلمية . وأخيرا لنلق نظرة شاملة على رحلة العلوم والثقافات هذه حول ذلك البحر الذى كان الرومان يسمونه فخورين «بحرنا» وهى تسمية نستطيع أن نقبلها دون مافرور استعمارى اذا فكرنا فى دولة الروح غير المادية . فعندما انطفأت شعلةالثقافة القديمة علىهذا البحر بقيتنقاط من الضوءهناك أوشعلت منجديد لتلمعكالمنارات فى ظلامالعصور الوسطى . فكانت ثمة بيزنطة أولا ، حلقة تربط ربطا أكثر مباشرة بين هذا العالم الجديد كله وبين العالم القديم الذى زال ، ثم كانت دمشق القـاهرة (منذ أختفى نور الاسكندرية اختفاء مؤسفا) ، وهما مركزان منمراكز نهضة الاسلام فىالبحر المتوسط وفى أقصىالغرب كانت قرطبة ، اسكندرية الغرب، فخورة بالشعلة التى نعلم أنها أضاءتها من جديد، ومن قرطبة الى طليطلة ، ومن طليطلة الى اشبيلية الفونسو العاشر ، الى باريس ، الى بولونيا ، الى فلورنسا دانتى ، الى بادوا بترارك وجيوتو والأساتذة الرشديين . هذه هى طرق الفكر فى الألف عام التى تكون العصور الوسطى ، فوق أغوال الحـرب وأنهار الدم • واذا كنا نحس مثل هذه الفظائع فى أنفسنا ، واذا كنا نعيش تحت سيف المخاوف الرهيبة ، فلنستمد بعض الشجاعة والأمل من هذا المثال الذى يظهر لنا كيف تسلم ثروة الروح التى لاتفنى ، وكيف تعلو على الطوفان لتمتد الى أجيال اخـرى •

الكاتب : فرنشسكو جابريلى

- استاذ اللغة العربية والادب الغربى فى جامعة روما.
- كرس نفسه لدراسة الادب الغربى والفارسى ، مركزا على مابهما من قيم فنية ، كما درس التاريخ السياسى للاسلام .
- له مؤلفات عديدة منها المدينة الاسلامية (عام ١٩٤٧)، والادب العربى (الذى صدر عام ١٩٥٢)

المترجم : الدكتور شكرى محمد عياد

- تخرج فى كلية الاداب سنة ١٩٤٠ .
- حصل على درجة الدكتوراه فى الاداب سنة ١٩٥٣ .
- يشغل الان كرسى استاذ الادب العربى الحديث فى كلية الاداب بجامعة القاهرة .
- له عدة مؤلفات فى الادب والنقد ، كما نقل الى العربية عديدا من المؤلفات الهامة .



بقلم
جين جاك سالوموت

ترجمة
د. محمد عبد الفتاح القصاص

المقال فى كلمات

العقلانية والانشطة الفكرية هما سمتا عصرنا الحديث ، عصر العلم الذى ذهب بالسحر والكهانة والأوهام والأساطير . وسيطرة العلم فى عصرنا لاتحتاج الى دليل . والذى يأخذه الكاتب على اهتمام السلطات السياسية بتقدم المعرفة أنه ليس اهتماما بالمعرفة ذاتها ، انما هو اهتمام هدفه ترجمة هذا التقدم الى منافع مادية ، كما أن المشاريع العلمية ينظر اليها من ناحية اقتصادية تتمثل فيما تقوم به من تحقيق لأهداف المجتمع . ويتساءل الكاتب : هل فى مقدورنا تخطيط العلم ؟ وهو يجيب على ذلك ساخرا بأن العلم يخطط بواسطة جهات خارجة عن العلم ، وأن البحث العلمى الذى هو احد ابعاد التخطيط يتوخى اعتبارات ترتبط بتطبيقات العلم لا بالعلم ذاته ، فالتخطيط عادة يرتبط ارتباطا وثيقا بالعائد منه . ويتناول الكاتب كذلك فى مقاله عملية الترشيد التى تضمن كون الأهداف المقصودة هى أفضل الأهداف ، متهما كثيرا من

الأهداف بأنها أهداف غير راشدة تمليها نوازع غير عملية . ويحمل الكاتب أيضا على نظرية التوجيه والحتمية فى مجـال الكشـوف العلمية ، قائلا ان المصادفات كثيرا ماتلعب دورا كبيرا فى الاكتشافات العلمية كما حدث فى اكتشاف البنسلين . وقد ترسم الأهـداف ولكن فرصة التوصل اليها والوقت اللازم لتحقيقها لايمكن القطع بهما . أما من جهة التنبؤ التكنولوجى فيرى الكاتب فيه نوعا من العرافة وان محترفيه لايزيدون عن كونهم يحدسون باتجاه الاحداث وان اجاباتهم عن الأسئلة التى تقدم لهم مهما صيغت فى معـادلات رياضية وعولجت معالجة حسابية لاتزيد عن كونها مجرد آراء ، وان هؤلاء المتنبئين لم يثبت صدقهم حتى فى المستوى الاول من حدسهم وهو التنبؤ الاستطلاعى الا باعتباره اداة لوضع البرامج . اما فى مجال التنبؤ التكنولوجى المعيارى ، فان المتنبىء يظهر بوضوح فى صورة العراف . ويرى الكاتب انه يجب الا يسمح بالحدس والتخمين فيمـا يتعلق بالنهـج العلمى ، وان الحدس والتخمـين لا يفقدان صفتهما بمجرد البعد عن التجليات الالهامية والاعتماد على أدوات رياضية .

لكل جيل قدر مقسـوم ، ولو أردنا أن نصف عناصر القدر المقسـوم لجيلنا لقلنا : العقلانية ، والانصراف الى النشـاطات الفكرية ، والتحرر من اسر السـحر والأوهام فيما يتعلق بأمور العالم (١) . ذلك لأن نجاح العلم كوسيلة للتنبؤ اى البصر بالمستقبل ذهب بسحر الرقية ، فلم تعد هناك صورة كاملة للعالم يمكن أن تبرزها المعرفة العقلية . ولم يعـد الجهـد العلمى طريقا ملوكيا الى عرش الآلهة ، ولا الى معرفة سر العالم ولا الى استكناه جوهر الطبيعة المخفى وراء أستار المظاهر . مضى سحر القوى الغامضة التى يسعى الانسان الى كشف نقابها أو الى استحضارها ، مضى هذا السحر الى غير رجعة نتيجة النماء والنجاح الذى لقيته الادوات التقنية الخالصة فى السيطرة على الظواهر الطبيعية ، وهى أدوات تتصف بالنهج الموضوعى والسمت المحايد . فاذا كان العلم قد حرم العالم من أوهامه فان مرد ذلك الى أن العلم يقدم اجابات بناءة للاسئلة التى تطرح عليه .

---

(١) انظـر Max Weber, La vocation du Savant, in Le Savant et le Politique, Paris, Plon, 1959, pp. 105-106.

ولكن العلم ذاته يصبح طرفاً فى عملية الذهاب بالسحر . فمن وسائله الارتباط الذى لا فكاك منه بالقياسات التى تمهد السبيل الى الادراك العقلى للطبيعة واعتبار الطبيعة مادة يمكن قياسها والتنبؤ بسلوكها ويمكن كذلك ضبطها وتنظيمها . وكما يستهدف العمل العلمى انقاص مدى المجهول والمشكوك فيه ، فان على العمل العلمى ذاته أن يرضخ للقياسات الرياضية التى تستهدف انقاص مدى الشك فى أعمال البحوث وايجاد الترابط بين الاتجاهات المختلفة . ذهب الزمان الذى كان يمكن فيه لرجل مثل بنيامين فرانكلين أن يلجأ الى شهود مستريبين فى امكان طيران البالونات ليسألهم : « ما هى فائدة هذا الوليد الجديد ؟ » لم يعد على العلم أن يبرر مسعاه وبحوثه ، ذلك لأن العلم قد أثبت فائدته وجدواه ، وحقق نتائج ملموسة . ولعله قد اثبت امورا بالغة الوفرة ، بحيث أصبحت النظرة لكل وليد جديد تتحدد فى ضوء النفع الانتاجي الذى سيحققه عندما يستوى فى مراتب الرجال ، واصبح الدافع الى رعاية الوليدوالحدب عليه مايعقد عليه من آمال العائد السريع الذى ينتج عنه فى صورة نتائج ملموسة .

واذا كان للسلطات السياسية اهتمام بالمعرفة ومصادرها وأصولها، فانه اهتمام ذو مدى مقدور . ان ماتنفقه الدولة من مال فى مجال زيادة القوة العاملة ذات المهارة والخبرة ، وفى زيادة امكانيات البحث واجهزته ، لا يرجع أساسا الى اهتمامنا بتقدم المعرفة لذاتها انما الى ترجمة هذا التقدم الى منافع مادية على شكل أدوات جديدة ذات قوة أعظم وقدرة على العمل أكفأ . أى أن السلطة السياسية تضع امام أعينها الحصيلة النهائية لعملية البحث ، اى المرحلة التى يمكن فيها تطبيق الاكتشاف او الابتكار ، اى التى يتحول فيها الى اختراع جديد ويصبح حقيقة واقعة فى صورة نواتج ملموسة أو وسائل انتاجية مستحدثة تضاف الى ترسانة وسائل الانتاج أو أدوات التدمير . فالمشروع العلمى جزء لا يتجزأ من منهج التفكير والتدبير الذى يتصور أن أهداف المجتمع يمكن أن يعبر عنها فى لغة الاقتصاد على أسس امكانيات الموارد التى تتاح ليحقق بها المجتمع هذه الاهداف. الكفاءة والانتاجية العالية والحدود القصوى هى العناصر التى ينبغى على البحث العلمى أن يجد لنفسه فى اطارها الوضع المقبول . فاذا بلغت الامكانيات المتاحة للبحث العلمى والتطوير ما يساوى ٢٪ من جملة قيمة الانتاج القومى أو مايزيد على تلك النسبة (تزيد قيمة الانفاق العلمى على ٣٪ من قيمة الانتاج القومى فى الولايات الأمريكية والاتحاد السوفيتى) فانه يتضح أن النهوض بكل مشروع من مشروعات البحث العلمى يقتضى مشاركة فى اقراره ، فلم يعد العالم مسئولا أمام شيوخه فقط ، ولا أمام الصدق العلمى وحده، انما أصبح عليه كذلك أن يقف بين يدى محكمة المجتمع ، لأن المجتمع يحدد قيمة الاعتماد المخصص لكل مشروع علمى ، ويراقب انفاق هذه الاعتمادات . أى ان نظام البحث العلمى لا يزيد على كونه جهازا فرعيا فى شبكة العلاقات الاقتصادية التى تتكم

فيما الدولة وتمارس عليها السلطة . ولو أن نواتج البحث العلمى لا ينطبق عليها تعريف « السلع والخدمات » على نحو ما يتفق مع مصطلحات الحسابات القومية ، فان الاعتمادات التى تنفق على البحث العلمى هى أساسا جزء من الحسابات العامة (٢) .

والتفكير العقلى فى عمومه ، وفى تناوله لقضية العلم والمجتمع ، يود لو تصور أن السلطات السياسية تتناول شئون العلم بطريقة علمية ، وأن العلم بدوره يتحكم فى الوسائل التى تدعم بها المعرفة ، ذلك لأن تقدم المعرفة وتطورها أصبح يعتمد على ما تهيئه الدولة من امكانيات ، ولأن الأفعال التقنية الراشدة تتحكم فى الوسائل والاهداف التى تصبح بها محاولات الاستكشاف جزءا من النسيج الوطنى المشترك . فان كان استهداف الادارة الرشيدة هو واحد من سمات المجتمعات الحديثة ، فانه من الطبيعى كذلك أن يكون هذا الهدف ألصق بنظام اجتماعى يقف رجاله انفسهم وقيمهم ومؤسساتهم على التفكير العقلى الراشد بحكم طبيعة العلم

ولكن السياسة العلمية لاتخلق الا مايشبه الإساطير عندما يختلط الامر بين العرض الفنى للمعرفة وبين تطلع الانسان للقوة، فالتناول العلمى فى مجموعه لايجعل التناول السياسى للعلم أكثر رشدا من أى تناول سياسى آخر . أى أساطير ترتبط بالمذاهب التكنوقراطية فى الادارة !. من الاتجاهات الرئيسية التى تتكرر كثيرا فى مناقشات السياسة العلمية ــ الكلام عن التخطيط ، والتوقعات ، وأسس الاختيار وتحديد الأولويات ــ وهى أمور قد يبدو منها أن الرغبة فى الترشيد ــ وهى من سمات الحكومة فى المجتمعات الحديثة ــ تعتمد فى تحقيقها على استيعاب المعرفة والتقنيات .

ليس الأمر كذلك ، كما يدرك ماركوس(٣) ، فانتصار التفكير الايجابى فى تلك الحالة يجعل التأييد العقلى غير عقلى ، وليس فى ذلك قلب للتفكير العقلى الى ضده انما الأمر هنا يحتاج الى تفكير عقلى مستكمل يكون متاحا أو قادرا على التأثير فى

---

(٢) التعبير الفرنسى يقول « الحسابات الوطنية تشتمل على السلع والخدمات التى يمكن تبادلها أو التى يتم تبادلها فعلا ، على مستوى السوق » . من كتاب Comptes de la Nations Ministère des Finances, Paris, 1960, Vol. 2 (Méthodes, p. 150)

التعبير الامريكى يقول بما لايختلف كثيرا من ذلك : « المعيار الاساسى الذى يستعمل فى تعريف وجه من أوجه النشاط على أنه انتاج اقتصادى هو قدر استعماله فى التبادلات التجارية بيعا وشراء فى السوق . من كتاب :

Nation Income Supplement 1954 to the Survey of Current Business, Washington, p. 30

(٣) Herbert Marcuse, One-Dimensional Man, Boston, Mass, Beacon Press, 1966, Chapter, 7.

مجالات التحقيق والتنفيذ ، وفى كلمات اخرى نقول ان الامر يحتاج الى تفكير علمى بالمعنى التقليدى . ان ما يعتور القرارات من نقص أو قصور انما يرجع الى نقص فى معارفنا وفى أدواتنا وليس نقصا فى طبيعة الأشياء والناس والمجتمع ، فاذا لم يكن فى استطاعتنا فى يومنا هذا أن نحقق الكثير فان ذلك يرجع الى قصور فى معارفنا ، فاذا جاء الغد فان التقنيات الادارية ستكون قد تقدمت الى درجة تسمح لنا بالسيطرة على النظم المعقدة ، وأن نعصف باخر العوائق التى يمثلها مالا نتوقعه من الطوارىء . وعلى كل حال ، فيكفى أن نراجع بعض تلك الاتجاهات ونتتبع الطرق التى أثارت بها الأمل فيما يسمى « تكنولوجيا السياسة » فى العلم لنتحقق من المدى الذى وصلت اليه أجهزة البحث العلمى ، ذلك لأنها ماتزال تتمرد على الجهود الرامية الى ترشيدها باعتبارها واحدة من القوى الانتاجية المتعددة .

التخطيط ورسم البرامج

لعله من نافلة القول أن نتساءل عما اذا كان فى الامكان تخطيط العلم . هذا سؤال كلامى كما يقول هارفى بروك لأن «العلم مخطط اما تخطيطا ضمنيا نتيجة لأن القرارات التى تتحكم فيه تصدر من جهات خارجة عن العلم ، واما تخطيطا صريحا ومقصودا » (٤) . فعندما تنهض الدولة بمسئولية الممول الرئيسى للأبحاث، فان توزيع الاعتمادات على الفروع العلمية وعلى مشروعات الأبحاث وعلى الباحثين يعبر عن توجيه لايعتمد على المقدرة العلمية وحدها . ومن الناحية النظرية ، يستهدف التخطيط العلمى « أفضل التنسيق والتوافق بين ما يحتاجه العلم من استقلال داخلى وبين رغبة المجتمع فى الحصول على ثمار العلم (٥) . ولكنا نقول فى المقام الأول بأن البحث العلمى يعد واحد من أبعاد التخطيط ، ونقول فى المقام الثانى بأن اتجاهات جهاز البحث العلمى وتطلعاته تأخذ فى اعتبارها الاغراض التى تستهدفها الدولة وهى اعتبارات ترتبط بتطبيقات العلم لا بالعلم ذاته .

وفى أفضل الظروف وأحسن الاحوال لايذهب توفر الموارد البشرية بقضية الاختيار ووضع أولويات . فتوزيع الاعتمادات فى الميزانية العامة على قطاعات النشاط المختلفة لايعتمد على الموارد المتاحة وحدها ، انما يعتمد كذلك على الاتجاهات التى تمليها الظروف الاقتصادية . فمعضلة الاختيار التى واجهها « جحش بوريدان »

---

(٤) Harvey Brooks, «Can Science be Planned», Problems of Science Policy, OECD, Paris, 1964, pp. 97.

(٥) المرجع ذاته ، ص ٩٧ .

ليست من مشاكل الحكومة ، فالقرارات تؤخذ على نحو ما ، حتى ولو كان القرار هو عدم اتخاذ قرار . ينبغى ان تكون أهداف الدولة متوافقة على قــدر الامكان ، ولكنها لاتزيد فى مدى تجانسها عن مـدى تجانس الاحتياجات التى يقصــد الى سدها . فالدفاع والمواصلات والتأمين الاجتماعى والتعليم والبحث العلمى وغيرها احتياجات غير متجانسة وغير متكافئة ، وهى جميعا تتطلب من الميزانية العامة مبالغ متباينة ، وهى متباينة حسب الظروف وحسب الأغراض المحددة للمدى القـريب .. وبالاضافة الى ذلك يوجد مجال للاختيار فى كل قطاع ، وهو اختيار بين بدائل متباينة وغير متكافئة بطبيعتها . من المستحيل القيام بكل الأمور فى وقت واحد أو القيام بها لنفس الأسباب ، لأن الموارد المتاحة فى لحظة معينة تكون دائما اقل من مجموع المتطلبات الظاهرة . والواقع ان كلما يعتبر من باب السياسة الثابتة لا يزيد على كونه توازنا دقيقا بين احتياجات بالغة الاختـلاف .

من مميزات الادارة الاقتصادية السعى نحو وضع أسس ثابتةعلى المدى الواسع، يستوى فى ذلك القطاع العام والقطاع الخاص ، وهو سعى لم تزل تتسع آفاقه فى فترة مابعد الحرب ، ويبرز فى جـلاء فى مجال التخطيط بعيد المدى (٦) . فمهمـا بلغ الاختلاف بين مؤسسات التخطيط وطرقه ومنـاهجه فى الدول المختلفة ، فان القصد من التخطيط فيها جميعا هو « تقليل مدى ما لايتوقع واختصـاره الى سلسلة من الاختيارات الواضحة المعالم والقابلة للتناول » (٧) . وتصف كلمات بيير ماس التخطيط بأنه « حسـاب المخـاطرات ومناهج تفاديها » (٨) . وسـواء كان التخطيط الزاميا أو ارشاديا ، مرنا أو غيرمرن ، فان معالمه الواضحة فى كل الاحوال هى أنه أداة لترشيد الاختيار بين البدائل . ولكن الواقع أن رشد التجربة التخطيطية لا يتبين ، اذا كان له أن يتبين ، الا بعد اتمام الاحـداث .

ويتيسر لنا على مستوى المؤسسة التجارية أن نتساءل عن الغرض من الانفاق المنصرف ، وأن نضع أولويات للأهداف ، وأن نجد وسائل تحقيقها ؛ فنفقات الطرق المختلفة يمكن تقديرها ، كما يمكن تقدير قيمة العائد منها فى هذا النطاق المحدد من النشاط الاقتصادى على أساس المصالح المحددة لتلك المؤسسة . وربما كان فى الامكان اتباع مثل تلك الوسائل لترشيد الاختيارات التى يلزم أن تتخـذها وزارة متخصصة ، ونموذج هذا النجاح الذى لقيته طريقة « ميزانية المهمات الوظيفية »

---

(٦) Andrew Shonfield, Madern Capitailsm, Oxford University Press (Translated from French version).

(٧) المرجع السـابق

(٨) Pierre Massé, Le Plan ou l'Anti-Hasard, Paris, Gallimard, 1965.

التى استحدثتها وزارة الدفاع الأمريكية . ذلك لأن تلك الطرق تجعل فى الامكان مقارنة القيم النسبية للتكاليف والعائد من البرامج المختلفة والتى تقصد الى ذات الهدف (٩) . ولكن اذا حاول الانسان تعميم مثل هذه الطرق الادارية فى المقارنة بين مميزات البرامج المختلفة التى تقصد الى أهداف مختلفة ، فان الاختيار يواجه عوامل القصور التى هى من سمات القرارات والاختيارات المتصلة بالنطاقات الاقتصادية الكبرى . فالحسابات تفقد دقتها بما يدخل عليها من اعداد متزايدة مع المتغيرات ، ولكنها فوق ذلك كله تقابل قصورا لا يمكن تفاديه . ذلك لانه ليس فى الامكان قياس الأمور غير المتكافئة . .

اذا اخذنا احدى مؤسسات القطاع العام مثل هيئة الكهرباء الفرنسية ، فاننا نجد انها قد تحاول تحليل قيمة النفقات والعائد من نوع معين من محطات القوى سواء كانت بالوقود او الطاقد الهيدروليكية أو الطاقة النووية ، وهى فى ذلك تعتمد على الدقة الرياضية . كذلك نجد أن هيئة السكك الحديدية الفرنسية يمكن أن تقارن بين الانفاق والعائد من أنواع الخطوط الحديدية ، بل هى قادرة على حساب العائد النهائى وغيره من العوامل المالية التى تتبع تغيرات اجور الركاب والشحن نتيجة لمنافسة السيارات وطرق النقل البرية الأخرى . اى اننا مادمنا فى حدود انشطة متقاربة ومتماثلة ومرتبطة بهدف واحد ، فيغلب أن يكون النجاح حليف السعى نحو وضع أسس سياسية ثابتة . ذلك لأن الأمر لا يتجاوز تحديد الاحداثيات العددية للعملية ، وهو القصد الكلى من التخطيط الذى يقصد الوصول الى النهايات العظمى . وليس من المستغرب أن تكون طرق الموازنات هذه قد تطورت نتيجة لبرامج الأسلحة الاستراتيجية ، فهنا يمكن أن يترجم الهدف الى معادلات حسابية ونماذج رياضية يمكن أن يستنبط منها ما يقصد اليه بأسرع الطرق واقلها كلفة . وفى هذا المجال يقول واضعو النظريات فى « اقتصاديات الدفاع فى العصر الذرى » (١٠) أن الاختيارات التى تصل بتحقيق الهدف الى أقصى حد فى حدود ميزانية معلومة ، هى ذاتها الاختيارات التى تصل بالنفقات الى أدنى حد مع تحقيق الهدف » . وفى كلمات اخرى ، لا يوجد تناقض بين الاعتبارات الاقتصادية والفنية والاستراتيجية ، والتى ينبنى عليها اقرار نظام تسليح معين ؛ « فالاستراتيجية ذات

---

(٩) انظر على وجه الخصوص كتاب
David Novick, Program Budgeting : Program Analysis and the Federal Budget, Boston, Harvard University Press, 1965.
نظام التخطيط والبرمجة والميزانية (PPBS) يطبق الان فى فرنسا تحت اسم : ترشيد الاختيارات فى الميزانية (RCB)

(١٠) Charles J. Hitch and Ronald N. Mckean, The Economics of Defence in the Nuclear Age, Harvard University Press, 1960, re-edited by Atheneum, New York, 1965, p. 2

الكفاءة القصوى هى ايضا الاكفأ اقتصادا (١١) . وتتحدد مسألة الأمن باعتبارها ضمن المسائل الاقتصادية ، ومن ثم يمتزج السعى نحو وضع سياسة ثابتة امتزاجا تاما بالرغبة فى التوصل الى درجة الكفاءة العالية ، وينتهى الأمر بأن تحل الكفاءة محل الثبات والاستمرار .

اما اذا كنا بصدد مقارنة انشطة مختلفة لا يبدو بين مقاصدها تقارب فى اى شكل من الاشكال ، فان فرصة تحقيق الثبات والاستمرار تضمحل بسبب العدد الزائد من المتغيرات التى ينبغى أن تؤخذ فى الحسبان . ويذكرنا هذا بما نجده من البلبلة البالغة فى تطبيق نظرية الالعاب كلما ادخلنا الى حلبة السباق لاعبير جددا . لكنا نجد بالاضافة الى ذلك ، وفوق ذلك كله ، أن التباين فى الأصول التى ندخلها الى مجال المقارنة ينفى فكرة اعتبارها حسابات راشدة ومعقولة ، ذلك لأن الأمر هنا فى الواقع مقارنة ذات صفة ذاتية ومذهبية ، اى أن الاختيار هنا اختيـــار سياسى . كيف تتسنى لنا مثلا المقارنة بين عملية بناء محطــة قوى وخط ســكة حديد ، أو عملية بناء مدرسة ومستشفى ، أو دعم مزارعى القمح وصـــناعات خاصة ، او بين ميزانية النشاط الثقافى والبرامج العسكرية ؟ الكل يعلم دون حاجة الى تفقه فى التصوير الرياضى أن مسألة الثبات والدوام ليست مسألة النظام الذى يضع الانسان نفســه فى اطاره انما هى مسألة الصلات التى ترســخ بين النظــم المختلفة . ليست هناك جدوى من البحث عن الثبات الاقتصادى على أســاس الاعتقاد بانه تشكيل للرشد الاجتماعى ، ذلك لأن الحسابات الرياضية لا حول لها ولا قوة فى ترجمة هذا التشــكيل الى حقائق تحت ســتار صياغته فى اكثــر التعبيرات موضوعية واعظمهـــا دقة . وليس فى الامكان عــلاج التناقضــات بين الاحتياجات المتنافسة والمقاصد المتباينة فى النظم المختلفة على أساس واحد هو الكفاءة الاقتصادية .

ولعله من قبيل التلاعب بالالفاظ الكلام عن التخطيط بينما الواقع لا يتجاوز مرحلة رسم البرامج ، وأولى بذلك الوصف ايضا الكلام عن الترشيد بينما الواقع لا يتجاوز مسألة حذف تلك الاتفاقات العامة التى لا يوجد لها مبرر ، أو رفض المشروعات ذات التكاليف الزائدة . فى هذه الحدود لا يزيد معنى ترشيد الميزانية القومية على كونه اجراءات ادارية . ومهما بلغت كفاءة المناهج الادارية فانها لا تكفى لتحويل رشد الوسائل المتبعة الى ترشيد للأهـــداف التى نتوقع تحقيقهـــا بتلك الوســـائل . يقول مؤلفو كتـــاب « اقتصاديات الدفاع فى العصر الذرى » ، بأن لا تناقض فى الأهداف بين الاعتبارات الاقتصادية فى الميزانية ، واعتبارات الكفاءة والفاعلية فى المجـــال العســـكرى ، « الا فى مرحلة تحديد حجـــم الميزانية وقدر

---

(١١) المرجـــع الســـابق

الأهداف التى يقصد تحقيقها » (١٢) . ولكن ألسنا نجد هنا جوهر مسألة الثبات الذى يستهدفه التخطيط ؟ ففى داخل كل من الاجهزة (الدفاع ، التعليم ، البحث ، الخ .) يأخذ التخطيط شكل وضع برامج للموارد والامكانيات التى تسمح بتحقيق هدف معين ، على أن يتم ذلك على أعظم درجة من الكفاءة . وليست مهمة التخطيط تحديد هذا الهدف بادىء ذى بدء . أما عندما تقع المواجهة بين الأجهزة المختلفة ، فان الاختيار بين « بدائل واضحة المعالم وقابلة للتنفيذ » وهو قصد التخطيط ، يحسم الخلافات بين الاهتمامات المتباينة ، وغالبا ما يتم ذلك فى جو يتسم بالبيانات الناقصة والغموض والمساواة بين مصادر الضغط المتبـاينة التى ولا مفـر يتصف بها النسيج السياسى فى تناوله لعملية تخصيص الاعتمادات .

قلنا ان اختيار أفضل الوسائل التنفيذية لا يكفى ليضمن لنا أن الأهـداف المقصودة هى أفضل الأهداف ، ومن ثم فان تحسين وسائل القياس الكمى وتجويدها لا يذهب بعناصر الخلل المرتبطة بكل قرار سياسى . ونضيف الى ذلك القول بأن اجماع رأى الشركاء على الأهمية التى يعلقونها على مشروع يقررون توظيف أموالهم فيه لا يكفى لاثبات رشدهم . على سبيل المثال ، نتساءل : على أى أساس نقول بأن قرار الرئيس كيندى بشأن ارسال رجال الى القمر قرار راشد ؟ يقول رايموند آرون « من الأمور الحسنة معرفة ما نقصده بقولنا ان الذهاب الى القمر عمل غير راشد . هو عمل غير راشد فى اعتبار التقدم العلمى ، وهو لا شك غير راشد فى اعتبـار الأهداف الاقتصادية ، وهو على الأرجح غير راشد فى اعتبار الأمن القومى ، أما فى اعتبار الهيبة الوطنية فعليك أن تسأل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ماذا يعنى بذلك . فاذ قال لك أن الوصول الى القمـر قبل الروس يعتبـر نصرا من الدرجة الأولى ، وانه يعلق على هذا الأمر أهمية قصـوى ، فلك — ان شئت — أن تصفه بالخبل ، ولكنا نجد أن له وجها من أوجه الحق » (١٣) . أما تحسين وسائل وضـع الميزانيات فيمكن أن يجعل لعملية تخصيص الاعتمادات المالية مظهرا دقيقا ، ويجعل لها وسائل موضوعية دقيقة فى رسم البرامج ، ولكنها لا تكون فى حد ذاتها تخطيطا بمعنى الترشيد الاجتماعى ، ولا تحل محل العمليات السياسية التى تتوافق فيها الاهتمامات المتناقضة نتيجة لعمليات المساومة ، أو نتيجة قرارات من جانب واحد .

القصور الذى يلازم هذه الوسائل جميعا ، يبرز أبلغ بروز عند محاولة تطبيقها على البحث العلمى . فما تزال المسألة تتعلق « بتقليـل مدى مالا يمكـن توقعه ، والتوصل الى عدد من البدائل الواضحة المعالم القابلة للتنفيذ » ، ولكن صفة « مالا

---

(١٢) المرجع السابق ، ص ٢

(١٣) Raymond Aron, «Applying First Principles», in Decision Making in National Science Policy, a CIBA foundation of Science and Science foundation Symposium, London, J. & A. Churchill Ltd., 1968, p. 288.

يمكن توقعه » سمة موروثة فى طبيعة الانشطة العلمية التى يقصد الى تخطيطها ، بل هى من ذات جوهرها . ولسنا نقصد القول بأن النشاط العلمى يلزم اعتباره نشاطا خاصا ومتميزا لا تمكن مقارنته بأجهزة الانتاج ، انما علينا أن نتذكر قول كرستوفر فريمان بأن الزراعة مثل العلم تعتمد على عامل الاحتمالية فى الانتاج ، ذلك لأن نتائج العلم تتعرض لمثل ما تتعرض له الزراعة من انحراف عن الانتاج القياسى نتيجة للتغيرات الموسمية ، وظروف الطقس ، والآفات الطارئة ، وغير ذلك . فاذا لم يكن للفلاح من سلطان على الأحداث الطبيعية ، واذا لم يكن للعالم من سلطان على التقدم غير المنضبط لاستكشافاته ، فمن باب أولى أن لا يكون للمخطط مثل ذلك السلطان . انما يعمل المخطط على اساس ان كل زيادة فى الاعتمادات المخصصة للقطاعات ينتج عنها حتما زيادة فى الانتاج ، وان كل انتقاص فى الاعتمادات يتبعه خفض فى الانتاج (١٤) .

على ان جهد التخطيط فى مجال العلم يتعرض لتقييد خاص يقتضيه أن يحدد لنفسه مالا يتوقع باعتباره من الأغراض لا باعتباره غرضا يمكن التنبؤ به . فاذا عدنا الى مثل الزراعة نجد أن الانحراف عن الانتاج القياسى لا يدعو الى الاستغراب لأن ذلك من طبيعة الانتاج المتوقع ، أما فى حالة البحث العلمى فان الزيادة على قلتها أو النقص على قلته يمثل فارقا بارزا كالفرق بين كل شىء ولا شىء ، فليس هناك من اكتشاف أو ابتكار يمكن أن نسميه أمرا لا مفر منه . أما المهمة الخاصة لعمليات التنبؤ الاقتصادى فهى النظر الى النسب بين عدد محدود من المتغيرات التى اظهرت ثباتا فى الماضى ثم استنتاج ثبات هذه النسب فى المستقبل . لنأخذ الدخل القومى كمثال . يستطيع الاقتصادى أن يحسب قياسات للعام القادم وذلك بأن يفترض معدلات ثابتة للزيادة والنمو الاقتصادى . ولكن افتراض وجود هذه المعدلات الثابتة هو ما ينقص البحث العلمى ؛ فليس هناك سلاسل احصائية للاكتشافات والاختراعات والفتوح العلمية والتقنية الكبرى التى يمكن أن تتيح لنا فرصة التقدير الاستقرائى .

لنتذكر مسألة استكشاف وتحضير مادة البنسلين ، لأن فى قصتها مثالا نموذجيا للدور الذى يمكن أن تقوم به المصادفة والحظ فى الاستكشاف . يقال فى بعض الأحيان انه قد كان فى استطاعة باستير أن يتعرف على اساسيات فعل عفن البنسليوم قبل خمسين عاما أو نحوها ، لو تهيأت له امكانيات معملية وتجريبية أفضل ، واذا لم يكن مستغرق التفكير فى أمور أخرى ، كأننا نقول : آه لو كان أنف كليوباتره أقصر .. أن اجتماع الظروف المواتية التى تحدد فى آخر الأمر مدى الاستكشاف ، يتفق اتفاقا تاما مع تعريف كورنوت لفكرة المصادفات ، اذ يقول « هو

---

(١٤) Christopher Freeman. «Science and Economy at Nation Level,» in Problems of Science Policy, OECD, Paris, 1968, p. 59-60.

اجتماع أحداث تتكون منها أجزاء فى سلسلة ، وهى اجزاء مستقلة بعضها عن بعض » ، وفى ذلك رد حاسم على كل من يقول بنظرية الحتمية فى مجال الاكتشافات العلمية . ولو كان لدى فلمنج معمل كالمعامل الحديثة لما أتيحت فرصة تلوث المستنبتات بفطرة البنسليوم ، وهى فطرة غير شائعة فى الهواء ؛ ولكن مما ساعد على تحقيق الاكتشاف هذا التلوث ، ونوع المستنبت الذى اختاره فلمنج فى تجاربه ، وكذلك كانت السلالات البكتيرية التى زرعها فلمنج (البكتيريا العنقودية) على درجة عالية من الحساسية لتأثير الفطر المضاد للبكتيريا . ولعل العامل الذى لا يمكن قياسه والذى ساد عملية استكشاف الأثر الفعال للبنسلين استمر كذلك فى عملية عزل وتحضير المضاد الحيوى ، فالمادة التى حصل عليها فلورى كان فيها الكثير من الشوائب ، وقد كان يكفى ٩٩٪ من تلك الشوائب لاحداث آثار سامة تذهب بالأثر العلاجى للفطرة ، ولو قد استعمل فلورى فى تجاربه خنزير غينيا بدل الفيران لكانت نتائج التجارب عكسية ، ذلك لأن مادة البنسلين سامة بالنسبة لخنزير غينيا (١٥) ، ولم يكن فى الامكان التخطيط لبحوث المضادات الحيوية ومواردها قبل عزل البنسلين وتحضيره . انما جاء بعد ذلك ، وبمعاونة ظروف الحرب العالمية الثانية ، أن أصبح هذا الجهد العلمى موضع برامج مرسومة بقصد اختصار المدى بين الاستكشاف والانتاج التجارى .

فاذا لم يكن فى قدرة السياسة العلمية ان تقدم « اختيارات واضحة المعالم وقابلة للتنفيذ » فان مرجع ذلك الى أن هذا المجال مايزال بطبيعة الأشياء مجال التشككات . فان كان من غير الممكن تحديد أهداف البحوث الحرة ، فمن باب أولى أن لا يمكن تحديد الوقت اللازم لتحقيق تلك الأهداف . ومهما بلغت الدقة فى رسم برامج البحوث الموجهة فلا يمكن تحديد الوقت اللازم لتصل تلك البحوث الى اهدافها . على هذا الأساس نقول بأن البرامج الخاصة بالتحكم فى الالتحامات الذرية الحرارية التى افتتحت فى وقت واحد تقريبا فى الخمسينات فى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى وبريطانيا ، والتى كان قد تحدد الفراغ منها خمس سنوات ، ماتزال تلك البرامج حتى اليوم بعيدة عن الوصول الى مقاصدها (١٦) . ولا يجب أن تغشى أبصارنا الهيبة التى ترتبط بكلمات معينة فتقبل الأفكار التى تخفيها تلك الكلمات ، ولا ينبغى أن نخلط بين رسم برامج البحوث وبين التخطيط العلمى ، كما لا ينبغى أن نخلط بين المحقق وغير المحقق .

---

(١٥) انظر شرح هذه القصة وغيرها فى كتاب .
René Taon, Reason and Chance in Scientific Discovery, New York, Hutchinson, 1957.

(١٦) لم يقتصر الخلل هنا على الاستهانة بضخامة المصاعب التكنولوجية ، ولكن يرجع قبل كل شىء الى اغفال المشاكل النظرية المتعلقة بفيزيقا البلازمةعند تخطيط المشروعات . انظر
H. Roderick, Fundamental Research and Applied Research and Development Introduction, in Problems of Science Policy OECD, Paris, 1968, p. 91.

اما الآراء التى تقول بالتوجيه والحتمية فى الابتكار فانها لم تقـدم شاهدا يدحض كلمات عالم الاقتصاد جاكوب شموكلر : « كل ما تسـمح لنا به معـارفنا الحالية هو القول بأن احتمال التوصل الى ابتكار معين يتـراوح من صـفر الى واحد » (١٧) . أما الفكرة القائلة بالتوزيع الأمثل للامكانيات على أنشطة الأبحاث المختلفة فتفترض امكان زيادة هذا الاحتمـال بالنسبة لأحـد قطاعات البحث ، وتفترض كذلك امكان قياس المميزات والعيوب فى توجيه الاعتمادات الى أحـد قطاعات البحث بدل الآخر . وحتى على مستوى الشركة الواحدة حيث يمكن التحكم الى درجة ما فى المخاطرات التى ينطوى عليها البحث ، ذلك لأن حساب الاحتمالات يعين الحدود التى يسمح بالمخاطرة فى اطارها . ان مثل هذا الحساب الذى يتناول مميزات المشروعات المختلفة أو البدائل ، لا يعنى التحكم الكامل فى عملية الخلق العلمى ، ذلك لأن المخاطر هنا موجودة على الدوام ولكنها توجد تحت اسم آخر هو عدم اليقين . أما على المستوى القومى فانه من الواضح أن مثل هذه الحسابات غير متاحة ، ومن العسير أن نتبين كيف يمكن للتخطيط الكمى الدقيق أن يغـير هـذا الوضع الى وضع أفضل .

ولعل وسائل ترشيد القرارات قد نشأت جميعا من خبرة وضع البرامج لنظم التسليح الحديثة ، حيث تتحدد الأهداف ويتحدد البرنامج الزمنى لتحقيقهـا مع ما يتسم به هذا التحديد من دقة كاملة . المخاطر الاستراتيجية واضحة المعالم ، وهى تحدد مرة واحدة ولا تتغير : هى مسألة حياة أو موت (١٨) . التنافس والبحث عن الربح يمكن أن يحددا للشركات الخاصة مقاصدها من السبق التكنولوجى ، وهى دواع لا تختلف كثيرا فى جوهرها عن الدوافع الاستراتيجية أو الدبلوماسية على مستوى الأمة . فاذا كانت هذه الوسائل لا تنطبق على أنشطة البحث العلمى أو اذا كانت تنطبق انطباقا غير مستقيم ، فليس مرجع ذلك أن المخاطر مختلفـة ، انمـا لأن طبيعة هذه الأنشطة مختلفة تمام الاختلاف عن العمليات العسكرية : فأهدافها

---

(١٧) J. Schmookler, Invention and Economic Growth, Cambridge, Harvard Press, 1966, p. 215.

للاستزادة من موضـوع الحتمية فى مجال الابتكار انظر على وجه الخصوص

S.C. Gillfillan, The Sociology of Invention, Chicago, Follet Publishing co. 1935.

واقرأ كذلك المقال

R.K. Merton, «The Role of the Genivs in Scientific Advances, in The new Scientist, London, Nov. 1961, p. 306.

(١٨) « القول بأن أولويات البحوث العسكرية وتطورها تقتصر اهميتها على تمكيننا من السـبق الزمنى قول ينطوى على خلط . ذلك لان نجـاح البحوث العسكرية قد يكفى وحده لمنع الحرب او كسب الحرب ، فاذا كانت الامة فى موقف الدفاع الاستراتيجى فقد يكون هذا النجاح عاملا لتفادى الهزيمة » كتاب اقتصاديات الدفاع فى العصر الذرى، ص ٢٤٥ .

مثل نتائجها المتوقعة لا تتصف بدقة الحدود ، وهى معرضة فى كل لحظة للتحدى والمراجعة . ولعل المرء يتردد فى القول بمثل هذه الحقيقة البديهية ، ولكننا نقولها ونرددها لما نجد فى مناقشات السياسة العلمية من شعور بالانبهار بهذه الوسائل الترشيدية لدى العلماء ولدى الاداريين . فتحليل النظم ، ونظام التخطيط ، وبرمجة الميزانية ، وفاعلية الانفاق ، وتفرعات التكافؤ ، وغيرها من حصيلة الكلمات التى تعبر عن الطرق الكمية ، كلمات ذات سحر يأسر ، كأنها قادرة على تحقيق الخوارق ، وكأن فى الامكان تحويلها من مجال اقتصاديات الدفاع الى مجال اقتصاديات البحوث .

الواقع ان تلك الوسائل لا تزيد على كونها أدوات لرسم البرامج وللادارة ، وهى تخدم عمليات حساب التكلفة وبيان المراحل الفنية الأساسية لتحقيق ناتج معين أو عملية محددة ، وهى وسائل لا تناسب انشطة البحوث والتطوير ، حتى أن الأمر يحتاج هنا الى تغيير واحد من الأسس التى تنبنى عليها وسائل التناول . ولقد أكد مؤلفو كتاب « اقتصاديات الدفاع فى العصر الذرى » القول : « فى مراحل التقصى والبحوث يكون تحديد الأهداف والبرامج الزمنية تحديدا دقيقا أقل اهمية من محاولة استعراض كافة الامكانيات المرجحة ، واختيار افضل العلماء ، واكفأ العامل تجهيزا ، واستثارة المنافسة ، والمحافظة على قدر من المرونة يسمح بالتتبع النشيط للفتوح العلمية الكبرى (١٩) . المقصود من ذلك فى ايجاز انه فى مجال العلم : ليس من الضرورى أن يكون افضل البدائل هو ما يبدو للوهلة الأولى أكثرها اقتصادا . ولعل بعض ما يستنتجه المؤلفون من اتصاف البحث العلمى بالشك وعدم اليقين ، يبدو وكأنه يعاكس مساعى الترشيد وهو الهدف من التخطيط . بالبحث العلمى ولاشك امور تجرى على عكس أساسيات الاقتصاد التى هى الشغل الشاغل للأجهزة الادارية فى الحكومة ، وكثيرا ما يستشهد بهذه الأمور واضعو السياسة العلمية ليبرروا طلبات تخصيص الموارد للعلم . ولما كانت نتائج البحث غير محققة ، فان تكرار الجهد ، بمعنى السعى على خطوط مختلفة ، يصبح مرغوبا فيه : فكلما عظم قدر النتائج المتوقعة من البحث كلما زاد قدر الشك فى امرها وازدادت الحاجة الى التكرار .

لقد وضعت تلك الأسس بالنسبة للبحوث والتطويرات العسكرية كذلك ، وهذا وضع يخالف ما يجرى عليه أمر القطاعات الأخرى من اقتصاديات الدفاع . نضرب لذلك مثالا بمشروع مانهاتان الذى تضمن استعمال ست طرق مختلفة ومستقلة ، استعملت فى وقت واحد ، لفصل المادة القابلة للانشطار . هذا نموذج لا يمكن اتباعه

---

(١٩) Charles J. Hitch and Roland N. McKean, The Economics of Defence in the Nuclear Age, p. 249.

فى مجال البحوث المدنية الا اذا كانت المؤسسة المعينة (الشركة أو الأمة) تعرف القيمة التى ترتبط بالحصول على النتيجة . من ذلك يتضح على وجه الدقة أن التخطيط العلمى لا يعتمد كثيرا على وسائل تحديد المقاصد والأهداف مهما بلغ قدرها العلمى أو مدى تقدمها ، انما يعتمد فى الواقع على تعيين الأهداف اى اختيار الأولويات التى توضع لها بالنسبة للأهداف البديلة . وتوجيه جهاز البحث العلمى لا يصبح أكثر رشدا بمجرد استعمال تلك المناهج فى تنفيذ البرامج ، مهما بلغ قدر التحسين والتجويد الذى ندخله الى طرق ادارتها . والواقع أننا لا نجد مشروعات وضعت برامجها بدقة مثل « مشروع أبولو » ، ولا تعرضت مثلـه تعرضا دقيقـا لعمليات تحليل النظم ، ولا تم استيعابها على انها واحدة من أصعب المهام التى توكل الى ادارة أبحاث ومن اكثرها تعقيدا . أما طرق الترشيد التى استعملت ومكنت من حل المشاكل الفنية والاقتصادية التى كان يلزم مواجهتها عندما اتفق الرأى على المشروع ، فانها لا تقوم هنا برهانا على رشد المشروع ذاته .

التنبؤ التكنولوجى :

بالرغم مما ذكرنا ، فان الثقة بتلك الوسائل هى التى انبتت فكرة « تكنولوجيا السياسة العلمية » واعتبارها قادرة على تخطى شكوك البحث تخطيا علميا ، ومن ثم فهى قادرة على تخطيط العلم بمعادلات كمية لا تقل فى ثباتها وفاعليتها عن تلك المعادلات التى تستخدم فى التخطيط الاقتصادى . ولكنا نكرر مرة أخرى اننا لا نقصد الى القول بأن الاستعانة بهذه الوسائل باعتبارها أدوات للادارة ، أمر غير حتمى ، ولا نقول بانها لا تؤدى الى توضيح الرؤية ومن ثم تزيد من فاعلية عملية اتخاذ القرارات وتنفيذها . من المألوف أن نقـول بأن الزيادة الواضحة فى سرعة التغيير ، والزيادة الواضحة فى تعقيد المشاكل الادارية ، تدفع المجتمعات الحديثة الى تصور المستقبل ومحاولة ترسم أبعاده . يقول جاستون بيرجر فى مطالبته منذ امد بعيد بالنظرة المستقبلية ، « السائق الذى يقود عربته فى بطء على طريق اعتاده لا يحتاج فى الليل الا الى مصباح ضعيف ، اما اذا كانت العربة مسرعة وتقطع بلادا غريبة على سائقها فانها تحتاج الى مصباح وهاج (٢٠) » والنجاح الذى تلقاه التنبؤات بعيدة المدى يعبر عن مدى اهتمام الناس عامة وحب استطلاعهم لكل جديد مستحدث ، وهو اهتمام يساوى قلقهم على المستقبل ، ذلك لأن المستقبل ينطوى على مصادر القلق بسبب سرعة التقدم التكنولوجى وتراكم هذا مما يبدو معه المستقبل وكأنه أمر حتمى لا مفر منه . فاذا أصبح التنبؤ مجـالا هاما ومعترفا به حتى ليصل الى درجة التحول الى

---

(٢٠) Gaston Berger, «La Prospective», 1957, in Phénoménologie du Temps et Prospective, Paris, P.U.F., 1967, p. 221.

صناعة قائمة بذاتها (٢١) فاذا ذلك لايعنى أن وسائله قد اتخذت صفة التبيان العلمى ، أو أنها فوق كل شىء قد أزالت ــ أو حتى قللت ــ من النسيج الملتبس للقرارات . أما فن الحدس والتخمين فمهما بلغت صرامة الأداة العلمية التى يعتمد عليها فانه لا يتجاوز كونه فنا .

ليس يعنى هذا أن السياسة العلمية يمكن أن تستغنى عن بعض التدبر المسبق والنظر فى العواقب . انما نقول بأن برامج البحوث لا ترضخ للنمط السنوى الذى توضع عليه الميزانيات الوطنية ، ولا يمكن تبرير نتائج هذه البرامج على مستوى المدى القصير . بل اننا اذا فكرنا فى النواتج المباشرة وغير المباشرة ، غير المتوقعة أو غير المرغوب فيها ، للتقدم التكنولوجى ، فاننا نجد أن قطاع البحث العلمى هو أجدد قطاعات الأداء السياسى بالتروى وتدبر العواقب . ولما كان تطبيق العلم والتكنولوجيا يتيح للانسان أقوى الأدوات واقدرها على احداث التغيير ، فان الأمر يقتضى منا بذل قصارى الجهد فى محاولة التأثير على مجرى الأحداث ليكون توجيه التقدم التكنولوجى على ضوء مضامينه وآثاره التابعة لا على ضوء أصوله ومنابعه . ولكننا مع ما نقدم عليه ــ الى حد ما ــ من توجيه تدريب التقنيين الجدد ، من ناحية طبيعة هذا التدريب وبرنامجه الزمنى وعدد هؤلاء المتدربين ، لا نستطيع التنبؤ بتأثيرهم على التطور الاجتماعى .

لناخذ المثل البسيط الذى ضربه برتراند دى جوفينل ، وهو نقص خدم المنازل فى الدولة الصناعية ، وهو نقص لم ينشأ عن التقدم التكنولوجى انما نشأ عن سياسة العمالة الكاملة . أما ما قد يحدث فى الولايات المتحدة الامريكية مثلا من استمرار هذا النقص فى فترات البطالة وزيادة عدد العاطلين ، فان ذلك يرجع الى أن الخدمة بالمنازل ليس لها جاذبية نفسية ، ويرجع بدرجة أكبر الى « وجود مصادر بديلة للدخل على هيئة اعانات البطالة ، وهى ناتجة عن اجراءات سياسية (٢٢) » . أما الثورة التكنولوجية فى الأدوات المنزلية فانها لم تغن عن الخدمة المنزلية ، كما لم يغن ترويض الحصان واستئناسه فى الغرب عن استعمال العبيد . انما ترجع أسباب ذلك الى طريق طويل ودوار من المبادرات السياسية التى لاترتبط من بعيد أو من قريب بالتقدم التكنولوجى . والواقع أن انتشار الأدوات المنزلية الآلية هو نتيجة العمالة الكاملة والدخول المرتفعة أكثر مما هو نتيجة التقدم التكنولوجى . يقول برتراند دى جوفينل « لو انك قدمت فى عام ١٩١٣ الى جهاز

---

(٢١) يقدر ماتنفقه المؤسسات الاقتصادية الامريكية على معاهد البحوث والتطورات ومراكزها بما يزيد على ٦٥ مليون دولار فى مجال التنبؤات التكنولوجية وحدها . انظر كتاب
Eric Jantsch, Technological Forecasting in Perspective, OECD Paris, 1967, pp. 251-253 and 272.

(٢٢) Bertrand de Jouvenel, The Art of Conjecture, Weidenfeld, 1967.

«التنبؤ الاجتماعي كل بيانات التقـدم التكنولوجي في مدى نصف القرن التـالى لما استطاع قط ان يتنبأ باختفاء خدم المنازل (٢٣) » .

كذلك تصور المثالية الخيالية ملامح المستقبل للمجتمع ، وهو مستقبل تتصل درجة معقوليته بقدر الروابط الاجتماعية المعاصرة التى يستبقيها أصحاب المثالية فى تصورهم للمستقبل . وهم فى تصورهم لا يتقيدون بمدى الزمن ، انما يرسمون صور للمستقبل فى تاريخ خيالى ، ويكون التصور فى بعض الأحيـان رجوعا الى « العصر الذهبى » الذى يصور الكمال البدائى ، ويكون فى بعض الأحيان الأخرى تصورا خرافيا للحاضر فى صورة متحوله (٢٤) . أما الاتجاه المستقبلى الواقعى فهو ، على عكس ذلك ، لا يتفادى الزمن بأن يسترجع أو يبنى مدينة فاضلة ، انما يفترض تواريخ معينة ومراحل فى التاريخ المستقبل محددة ، ووعودا مرسومة . وهى جميعا تدخل فى اطار حسابى ، ويتكون منها برنامج زمنى تبرز فى مواعيده « الأحداث التى تشكل المستقبل » . فاذا كان الاتجاه المستقبلى يتضمن تحديا لمخاطر المجازفة على نحو ما يتضمن الاتجاه المثالى تحديا لفكرة الزمن ، فان تصور المستقبل على الحالين يبقى محتفظا بوظيفة التطهير (أى التخليص من الأرواح الشريرة) . ولا ترسم لغـة توقيت الاحتمالات تصورا للمستقبل أكثر دقة من لغة المتغيرات غير الموقوتة . فالتنبؤ بالمستقبل يعتمد على تصور لامتداد الاتجاهات ، وهذه الاتجاهات ترتبط بتغيرات يفوق عددها وتعقدها كل ما يضعه المثاليون فى اعتبارهم ، ولكن عددها مع ذلك يمكن حصره . نضيف الى ذلك الاشارة الى ما عرفه الاقتصاديون منذ زمان بعيـد ، وهو أن قصور التنبؤ بالمستقبل الاجتماعى لا يرجع الى قصور فى طرق التنبؤ بقـدر ما يرجع الى قصور فى البيانات عن الأحوال المعاصرة ، ونعنى بكمال هذه البيانات أن تكون موحدة النمط ، شاملة ، ومتاحة فى وقت الحاجة اليها . يقول دونالد أ. شون « الحصول على البيانات فى الوقت المطلوب قد يساوى فى الأهمية ذات الحصول عنها ، مثال ذلك اننا حاولنا فى عام ١٩٦٥ أن نعـد تنبؤات لعـام ١٩٧٥ على أساس بيانات عام ١٩٥٨ (٢٥) » .

ولا يختلف الأمر عند تطبيق الاتجاه المستقبلى على البحث العلمى . نجد أول ما نجد فى مجال البحث العلمى أن العملية ذاتها ، والمؤسسات التى تقوم على أمرها ، والاشخاص الذين ينهضون بمسئوليتها . تشكل جميعا جهازا يبلغ تعقيده درجة يتعذر معها تجميع كافة البيانات والمعلومات التى تبدو هامة ، ثم التمكن من هذه

---

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٣٥٨

(٢٤) انظر كتاب Les Utopies de la Renaissance, Paris, P.U.F., 1963

(٢٥) Donald A. Schon, «Forecasting and Technological Forecasting», in «Toward the Year 2000 : Work in Progress», Daedalus Boston, 1967, p. 765.

البيانات . ثم نجد ثانيا أن جهاز البحث العلمى ذاته لا يمكن أن يعالج باعتباره جسمه ذا حياة خاصة يستقل بها عن سائر الأجهزة الأخرى . يؤكد جلبرت سيموندون أن الأداة التكنولوجية ذات كيان ووجود محدد لأن لهـا نشأة وتطور ، ولكن تلك النشأة وهـذا التطور لا تخص الأداة وحدها ، انما تشمل كذلك تاريخ علاقتها بالانسـان وبالعالم (٢٦) . والتنبؤ التكنولوجى يتحدى خلل التبدد كأنما يتناول كيانا مستقلا عن الانسان مشحونا بأشياء تقنية يتحدد احتمال وجودها بالنموذج الأدائى للشىء فى صورته النهائية : جاهز ومعـد للاستعمال والأداء ، كأن الاداة منعزلة عن التاريخ وليست جزءا من ترابط وظيفى وتطورى يتمثل فى العلاقة بين الأداة والانسـان . لكن الواقع هو أن العلاقة موجودة منذ بدء الخليقة ، وتحديد المراحل المثالية لا يعزل نشأة الأدوات التكنولوجية وتطورها عن مشاركة الانسان فى مراحل العمليـة . ان محترفى التنبؤ التكنولوجى لا يزيدون عن كونهم يحدسون باتجاه الأحداث ، أى بنتيجة سلسلة من الاسئلة تقـدم للخبراء ، واجابة هؤلاء الخبراء لا تزيد — مهما صيغت فى معادلات رياضية وعولجت معالجة حسابية — عن كونها آراء (٢٧) .

لعل كتـاب اريك جانتش مسئول أكثـر من غيره عن اشـاعة فكـرة التنبؤ التكنولوجى كأداة لرسم السياسة العلمية بين الادارات الوطنية . فهو كتاب ساحر فى كثير من الأوجه ، وعلى الخصوص ذلك الاستعراض الواسع الافق للانماط المتعددة للطرق والأنظمة التى يمكن أن تختص « بما يكن ان نطلق عليه التقدير الاحتمالى ، على مستوى من الثقة عال علوا نسبيا ، لمستقبل التحولات التكنولوجية (٢٨) » . وفكرة التحولات التكنولوجية تهيىء للتنبؤ بعدا جديدا ، لأنها تقترح « حيزاً » يكون مجال طموح للتنبؤ بالاكتشافات والاختراعات والابتكارات ليس لذاتها فقط ، وانما كذلك على أساس تأثيراتهـا على البيئة الاجتماعية . أول مستويات التنبؤ يجتزىء

---

(٢٦) Gilbert Simondon, **Du Mode d'existence des object techniques,** Paris, Aubier-Montaigne, 1969, pp. 154-158.

(٢٧) « طريقة ديلفى » هى أشهر النماذج المعروفة للوسائل التى لاتخفى حقيقة اعتمادها اعتمـادا أساسيا على الالهام . فى هذه الطريقة توضع سلسلة منتظمة من الاسئلة المبرمجة برمجة دقيقة تتنـاول الاتجاهات التكنولوجية فى مجال علمى ما ، وتقـدم الاسئلة الى جماعة من الخبراء الاخصائيين ، ثم تدعم الاجابات بمعلومات وبيانات تجمع من الخارج ، ثم تقدم هذه الاجابات والبيـانات جميعا الى حاسب الكترونى . النتيجة هى قائمة بتنبؤات عن الفتـوحات التكنولوجية تترى حسب برنامج زمنى يتكون من مراحل الاحتمالات تتحدد بالاتفاق المقبول بين جمـاعة الخبراء . أما وسائل التنبؤ التـكنولوجى التى تستهدف تقليل دور الالهام باستعمال مزيد من الالات الحاسبة ، فمن الواضح أنه لامناص من الدراسة التمهيدية التى يقـوم بها الخبراء . عن طريقه ديلفى ، انظر كتـاب :
T.J.Gordan and Olaf Helmer, **Report on a Long-Range Forecasting Study,** Report. p. 2982, Rand corporation, Santa Monica, 1964.

لشرح الطرق الاخرى أنظر المرجع ٢٨

(٢٨) Erich Jantsch, **Technological Forecasting in Perspective,** OECD, Paris 1967.

بتحديد الزمن المطلوب لاستكمال اختراع معين ، والجهد المطلوب للحصول عليه ، والامكانيات الوظيفية التي يمكن أن تكون له. هذا ما يسميه جانتش «التنبؤ التكنولوجي الاستطلاعي » وهو في ذلك يميزه عن المستوى الاعلى من التنبؤ والذي يسميه « التنبؤ التكنولوجي المعياري » الذي يتناول ايضا البصر بكل توابع الاختراع .

في كلمات قصيرة نقول ان المستوى الأول يتناول تاريخ الاختراع ذاته ، اما المستوى الثاني فيتناول الطريقة التي يمكن أن يؤثر بها الاختراع على التاريخ في عمومه .

يمكن القول بأن كل ما نبع عن الاتجاه المستقبلي من كتابات يبدو وكأن له نكهة « الصباح لدى السحرة » . وليس كتاب جانتش بأقل من غيره في هذا الصدد (٢٩) . ولكن روح الشعور بالمسئولية التي تتصف بها المؤسسات التي رصد الكتاب أنشطتها ووضعت كيانها ، والمنظمة الدولية التي كفلت الكتاب ورعته ، تكفي جميعا لأن نأخذ الكتاب مأخذ الجد . التفاؤل الذي يبديه تجاه امكانيات التنبؤ التكنولوجي ينبىء عن المناخ الذي تنغمس فيه السياسة العلمية ، وكثير من أصحاب السلطة الادارية يشاركون في هذا التفاؤل ، متهيئون لتصديق الفكرة القائلة بأن او استوفيت واستكملت الأدوات التقنية ثم استخدمت استخداما منتظما في اتخاذ القرارات الحكومية المتعلقة بالعلم ، فان الترشيد ينجح في السيطرة على كل مصادر البلبلة والتبدد ، وسيقدر لذلك على السخرية من التاريخ .

يبدو التنبؤ التكنولوجي من هذه الناحية أقرب صلة بالطريقة الرومانية في تأويل الفأل منه بالتصور الاسطوري للمدينة الفاضلة في مثاليات عصر النهضة . ذلك لأن تلك المثاليات ، في عدم مبالاتها بفكرة الزمن ، لم يكن لها اهتمام بالعمل المباشر ، انما كان اهتمام العرافين الأول أن يجعلوا من انفسهم أصحاب الشعائر التي تتحكم في الأفعال (٣٠) . وكما كان من وظيفة العرافين أن يثبتوا الأوضاع ، ونقصد هنا المعنى البدائي لفكرة التثبيت ، « فان الفأل ذاته يصبح قاطع الدلالة

---

(٢٩) مثال ذلك وضعها على نفس المستوى وسائل تتباين فيها درجة التوكيد والاستيثاق ، او تتناول أمورا على انها حقائق ثابتة والواقع انها ليست كذلك . من هنا يقرأ الانسان القول « هناك قطران فقط استكملا الهيكل المطلوب ليصبح التنبؤ التكنولوجي متاحا بطريقة منتظمة ليعاون التخطيط الوطني : الولايات المتحدة الامريكية وفرنسا . ليست كلمة « فقط » هي مصدر الخطأ الفادح ، ولكنه القول بأن مثل هذا الهيكل قد وجد أصلا في فرنسا أو في الولايات المتحدة الامريكية . كتاب :
E. Jantsch, Technological Forecasting in Perspective , p.. 279.

(٣٠) Jean Bayet, Histoire politique et psychologique de la religion romaine, Paris, Payot, 1957, pp. 51-60.
Raymond Bloch, Les prodiges dans l'Antiquité Classique, Paris, P.U.F., 1963, p. 3rd part

بفعل الشعائر والطقوس المرعية وتأثيرها (٣١) . من هنا نتبين أن المتنبئين التكنولوجيين يعملون على تثبيت خطوط القوى فى العلم والتكنولوجيا ، وهى أمور سيصبح لها الحسم بفضل الحسابات الرياضية . التناول الراشد والمنهجى يحول تفسير الشعائر والارشادات من مجال الطبيعة غير ذى الحدود الى مناطق حضارية ذات حدود . لم يعد مطلوبا ان تحل شفرة رسالة المستقبل على اساس التجليات الطبيعية التى قد تتدخل فيها الآلهة لتكون بين الانسان وقدره ، انما المطلوب هو أن يكون الأساس هو نواتج الحضارة ، وهنا يكون مستقبل التكنولوجيا نظيرا لقسمة الانسان وقدره . على أن المسألة لم تتبدل ، فما تزال مرتبطة بظروف تستحث الانسان على الفعل المباشر ، والاختيار الوقتى ، والقرارات العاجلة .

على انه من اليسير ان تتشكك فى المتنبئين التكنولوجيين ، فحتى فى المستوى الأول من حدسهم ، وهو « التنبؤ الاستطلاعى » لم يثبت صدقه بعد ، الا باعتباره اداة لوضع برامج الانتقال من مرحلة استكمال الاكتشاف أو الاختراع الى مرحلة التجديد والابتكار . وكفاءة تطبيق الاكتشافات التى تحققها مناهج الادارة الحديثة تحملنا نعتقد باننا قادرون بنفس تلك الوسائل الميكانيكية أن نطوع عملية الاكتشاف ذاتها الى ما يشبه برنامجا من برامج التنبؤ يسمح بتحويل طاقات الاستكشاف الى امكانيات عملية ، او فى كلمات اخرى ، يسمح بترسم صورة الاستكشاف فى وقت يمكن معه أن تعالج تلك الصورة معالجة رياضية وكأنها حالة تتحقق فى اطار المدى المتحدد . ولكن التحكم فى العملية التى يتم بها الحصول على نتائج الأبحاث مايزال امرا غير متحقق . فمهما بلغ وضوح تصورنا لعملية البحث العلمى فى اطار علاقاتها بالتكنولوجيا وبالضوابط الاقتصادية ، فاننا لا نستطيع قط أن نزيح جانبا منابع التشككات التى هى جزء من أصول عملية البحث العلمى ومن جذورها .

اللهم الا اذا تصورنا ان الاستكشاف يتنزل – على نحو ما يقول برجسون عن المستقبل – « فى ضرب من الصندوق ملىء بالامكانيات » ، يستطيع الخبراء ، بفضل صلتهم القديمة بالعلم والتكنولوجيا أن يجدوا له مفتاحا (٣٢) . هذا التصوير لا يختلف فى مجال تخيل التغير التكنولوجى عنه فى مجال التوهمات الميتافيزيقية ، حتى ولو بدا أن المسألة هنا أيسر حسابا باعتبار تعلقها بنظام مغلق لمجموعة من النقط المادية ، ومعنى ذلك أن نغمض عيوننا عن حقيقة الأمر وهو أن التغير التكنولوجى يستخلص من مجموعة كبيرة من العناصر لا تقتصر على الحيز والمادة . « لو كنت أعرف ماذا سيكون العمل الرائع فى الغد لأبدعته أنا » . ولم يجد واحد من أبرز خبراء الابتكارات التكنولوجية وهو دونالد ا. شون ردا خيرا من رد برجسون فكتب

(٣١) كتاب Jean Bayet ، ص ١٠٢

يقول ، « هناك مسألة خاصة فى كل نظرية تفترض امكان التنبؤ بالابتكار . فالتنبؤ باختراع اختراع فى حد ذاته ، بمثل هذا يحقق التنبؤ ذاته . أما أن نقول بأن نظرية معينة تسمح بالتنبؤ بالاختراع ، فانه يشبه القول بأن النظرية تسمح بالاختراع » (٣٣) .

ولكن عندما نرتفع الى المستوى الأعلى وهو « التنبؤ التكنولوجى المعيارى » فان المتنبىء التكنولوجى يظهر بوضوح فى صورة العراف ، ويقوم بدوره فى المجتمعات الحديثة . فالتنبؤ التكنولوجى المعيارى يفترض فى الواقع امكان تحليل كل عوامل الاستكشافات المقبلة ، وتوقع امكان تطبيقها ، ورصد الحاجات التى ستسدها ، وبيان تأثيراتها على البيئة الاجتماعية . أى أن « مدى التحول التكنولوجى » يمكن أن يستكشف فى اطار علاقاته المستقبلة ، كأنه واحد من أجهزة التغذية الرجعية التى تتيح على الأرجح تحقيق المعرفة الناتجة ، وتكون تلك المعرفة فى ذات الوقت المسك والناتج للقرارات التى تنشئها .

كأن الأمر هنا هو أن فن التنبؤ يتجه الى أن يستبدل نفسه بفن اتخاذ القرار ، وهو يحول الوعود المأمولة والتى تستنبط من الاتجاهات التكنولوجية الى أهداف اجتماعية . وهى « معيارية » على وجه الدقة لأنها تنبى توقعاتها على أساس الأشياء التكنولوجية ، وعلى قيم يرتبط بها تحقيق الوعد ويتبنى عليها اتخاذ القرار بشانه . حتى ليكاد المرء أن يصدق آمال نورنبرت وايذر وكأنها قد تحققت فعلا ، بأن المعرفة التكنولوجية قد نمت لتعى حدودها وقصورها ، وأصبحت لا تعرف كيف تمد آفاقها من مجال « كيف تعرف » الى مجال « ماذا تعرف » (٣٤) . ولكن صورة المستقبل التى ترسمها تلك الخطوط التكنولوجية التى يمكن لطاقة الالهام — حتى مع ارتباطها بالنماذج الرياضية — ان تتنبأ بها وأن يكون ذلك على درجة عظيمة من المعقولية . تلك الصورة مشحونة بالقيم المعاصرة ، أى أن عناصر الاختيار التى تنشأ عن تصورنا للمستقبل التكنولوجى لا يمكن فصلها عن الوقائع المذهبية المعاصرة .

ليس من شك فى أن المتنبئين التكنولوجيين — شانهم فى ذلك شأن العرافين الرومانيين — يؤكدون انهم يجعلون لانفسهم مهمة معينة هى تحديد البدائل ، وان

---

(٣٣) Dona'd A. Schon, « Forecasting and Technological Forecasting » in Daedalus, p. 767
Donald A. Schon, Technology and change, New York, Delta Book, 1967.

(٣٤) « هناك صفة أهم من « معرفة كيف » أى معرفة كيف نصنع ! ولسنا نستطيع إلهام الولايات المتحدة بان لها منها نصيب وافر ، تلك هى صفة « معرفة ماذا » ونقصد بها تحديد كيفية تحقيق أهدافنا وتحديد ماهية هذا الأهداف كذلك » : من :
Norbert Wiener, The Human Use of the Human Beings, New York, Avan Books, 1967, pp. 250-251

في امكان المجتمع ان يرفض نبوءاتهم . ولقد كان الرومان على درجة ممتازة في هذا الفن الذي يعتمد على تبين المدى الذي يمكن ان يتركه البصر بالمستقبل لحرية الفعل . كان يبدو وكأنهم يملكون وسائل تناول المستقبل والمصير ، حتى ليبدو وكأنهم يسيطرون على المستقبل والمصير ذاته . ومن هنا اصبح « هؤلاء التكنولوجيون انفسهم ، في اخلاصهم للروح اللاتينية ، أكثر سيطرة على الشعائر والاشارات التي هم عرضة لها » لدرجة التحكم في شهية الكتاكيت المقدسة وهي في أقفاصها (٣٥) . مثل هذا نجده في النبوءات التكنولوجية التي تستكمل بما يرتبط بها من قيم دعائية اذ كان لها أن تتحقق ، فهذه النبوءات تترك اقل الفرص للخلل بقدر ما تؤثر بفعل الكلام عن المستقبل على القرارات التي تتخذ في الحاضر . فخطوط القوى والتوجيهات التي تؤثر في اتجاهات البحث العلمي يمكن تصورها على انها أمور محتملة على أساس من القيم الحاضرة ، وهي تجعل ذلك التصور المستقبلي مرغوبا فيه ، وهي في نفس الوقت تضفي على توقع تلك الاتجاهات (النبوءات) احتمالا أكبر .

يقول أصحاب فكرة التنبؤ التكنولوجي المعياري بأن « المسألة الهامة التي يجب ان نتذكرها هي تخطيط النظام بحيث يسمح عند توسيع أفقه بادخال أهداف ومقاصد معينة كجزء مما يتوقع ، ثم تتحول هذه الأهداف الى عناصر فعالة ومؤثرة في تحديد التغيرات التي يلزم ادخالها على الأوضاع الحاضرة — وذلك باقتراح سلسلة من السياسات التي يلزم تطبيقها ، والسياسات المتصلة والمتفاعلة التي يلزم استحداثها — اذا كان للمستقبل المرتجى أن يترجم الى واقع معاصر » (٣٦) . هذه الوظيفة التوجيهية لأولئك العرافين المعاصرين لا تقل في مضمونها السياسي عن وظيفة العرافة عند الرومان . وكما اصبحت العرافة أداة في أيدي أصحاب السلطة أو المتطلعين للسلطة ، يرتبط بها قدرهم المقسوم من نجاح أو فشل . كذلك حال أصحاب « التنبؤ التكنولوجي المعياري » يحلمون بأمل أن يصبحوا مركز قرارات الدولة يحددون اتجاهاتها ومقاصدها . وقد تساءل الفيلسوف « كانت » ساخرا « كيف يكون التاريخ الاستنتاجي ممكنا ؟ » . الاجابة هي « اذا كان العراف ذاته هو صانع الأحداث ، ومنظم تتابعها ، وهو يروى قصتها مسبقا » (٣٧) .

---

(٣٥) مرجع سبقت الاشارة اليه : Jean Bayet, p. 55

(٣٦) Hasan Ozbekhan, The Idea of a Look-Out Institution system Development corporation, Santa Monica, California, 1965.

(٣٧) E. Kant, «The Conflict of the Faculties,» in the pamphlets on The Philosophy of History, Paris, A. Montaigne, 1947.

التنبؤ والبحث العلمي الحر :

التنبؤ التكنولوجي ، وهو يجعل من نفسه اداة للتكنولوجيا الاجتماعية (٣٨) ، لا يجتزيء بتفسير الاشارات التي تشير الى الاتجاهات الممكنة للبحث العلمي . انما يربط نفسه بتصور للبحث العلمي وللمجتمع يكون فيه البحث عن المعرفة الجديدة مرتبطا بامكانيات تطبيق تلك المعرفة . والأفق « المعياري » للتنبؤ التكنولوجي هو فائدته الطبيعية ، أي حيث يترجم الاكتشاف والابتكار الى مستحدثات لا تؤثر على علاقة البحث بموضوع البحث ذاته فحسب ، انما تؤثر كذلك على العلاقة بين نواتج البحث والكل الاجتماعي . أي أن طرق التنبؤ ووسائله ليست وسائل فحسب بل هي بالاضافة الى ذلك مذاهب تتحدد في الاطار الذي يشتمل كذلك على جهاز البحث في ارتباطه بموضوعاته وأهدافه .

اما البحث الحر الذي تكون نتائجه غير محققة للباحث الذي يجريه وللمؤسسات التي تنفق عليه ، فيبدو نموذجا للحالة القصوى من الانحراف عن مفاهيم الفائدة والعائد الاقتصادي . ولكننا نقر بأن نظام البحث العلمي الكامل يشتمل على نطاق ليس الى اختصاره أو تقليل مداه من سبيل ، وهو نطاق يتسم بتبض الخطر والمفاجآت . ويقتضي حل المشكلة أن نفترض وجود تلاحم تام بين جهاز البحث العلمي والكل الاجتماعي ، والبحث الحر جزء من هذا التلاحم مع أنه أقل درجة في مجال التصديق من الانماط الاخرى للبحث . فاذا حددنا تحديدا مسبقا الأغراض التي يلزم أن يستهدفها البحث العلمي بالاضافة الى الأغراض الشاملة ، والمهمات التي يجب القيام بها ، فان التنبؤ التكنولوجي سيكون في وضع يسمح له بتوجيه البحث العلمي الحر بحيث يلتزم بالخط الذي ترسمته لنفسها الأغراض الاجتماعية التي هو صاحبها وعرافها . يقول ابريك جانتش « ان التنبؤ التكنولوجي المعياري اذا كانت نقطة بدايته هي احتياجات المجتمع ، فهو قادر على استيعاب البحوث الأساسية والافادة من توجيهاتها لأبحاث التقدم الاجتماعي ، على نحو ما يتم تطبيق البحث العلمي في المجال الاقتصادي في الصناعة » (٣٩) .

لا يمكن أن نتهم جانتش بالفشل في طرح السؤال في وضوح وحسم ، فالتنبؤ التكنولوجي المعياري يتحدى فكرة البحث الأساسي الذي يتميز بسمات خاصة ، منها أن لا يمكن التنبؤ بتطوره ولا توقع خطاه المقبلة . هذه هي الفكرة التي يسميها

---

(٣٨) Olaf Helmer, Social Technology, New York, Basic Books, 1966
Hasan Ozbekhan, Technology of Man's Future, Report SP.-2494, System Development Corporation, Sanata Monica, California, 1966.

(٣٩) Erich Jantsch, Technological Forecasting in Perspective, p. 60. see also, «Technological Forecasting — A Tool for a Dynamic Science Policy, in Problems of Science Policy», Paris, OECD, 1964, pp. 113-123.

جانتش « حوصلة » العلم ، أى انطوائه فى برج عاجى منعزلا عن تأثيرات العالم الدنيوى ، ويشير الى نموذجها الواضح فى كتاب توماس كوهن « تركيب الثورات العلمية » ، اذ يقول كوهن ، ان التقدم العلمى يشتمل على نوعين من الحركة : حركة « العلم السوى » الذى يتطور فى حدود الصيغ والقواعد المرعية ، وحركة العلم فى فترات الفوران والأزمة حين تشتعل الثورة بأثر الافكار والرؤى « غير السوية » والتى تتخذ شكل الصراع بين الصيغ والقواعد القديمة والجديدة ، حتى يكتب النصر للأفكار الجديدة فيعترف بها ، وتصبح هى الأساس الجديد « للعلم السوى » (٤٠) .

ان الصيغ والقواعد المرعية تكفى فى حد ذاتها لتكون أسسا لاختيار موضوعات الدراسة ، فاذا أثبت الجهد العلمى جدواه ، فان ذلك يرجع الى الحلول التى توصل اليها فى اطار « العلم السوى » . من المستحيل التأثير على هذه العملية من الخارج ، وبالاحرى فمن المستحيل التنبؤ بالاتجاهات « غير السوية » التى تصبح فيما بعد مصدرا للصيغ والقواعد الجديدة . يقول كوهن « لقد درجنا منذ أمد على رؤية العلم فى صورة الجهد الواحد الذى مايزال يتقدم رويدا نحو هدف ما تحدده الطبيعة تحديدا مسبقا » (٤١) . ولكننا نقول بأن لا جدوى من أن نتصور أن هناك صورة للطبيعة كاملة وشاملة وموضوعية ، ولذلك فيجب أن « نبرر وجود العلم ونعلل نجاحه فى زمان معين . اذا تعلمنا استبدال التطور مما نعرفه حقا الى الاتجاه الى ما نود معرفته ، فان عددا من المعضلات التى تواجهنا ستختفى » (٤٢) .

هذا التصور « النقى » الذى يرفض كافة التأثيرات التى قد توجه العلم ومجراه الا ما ينبع من مسائله ، على نقيض من التصور الآخر وهو « دمج» العلم فى النظام الاجتماعى . هنا نجد أن الواقع العملى الذى شهده التاريخ فعلا يعلو على كل فكر نظرى عن المعرفة ، كأن ليس للمعرفة ذاتها من اهمية الا بقدر ما يطوعها التاريخ . فاذا عارضنا هذه التصورات من أساسها فليس سبب ذلك اننا نجد لكل من التصورين معا شواهد ترتكز على الحقائق ، انما يرجع ذلك الى أن هذين التصورين يرجعان الى مذاهب فكرية لا يمكن التوفيق بينها . كأن الحوار يجرى بين أصمين ، لأن كل معسكر يشير الى شىء يمكن تعريفه تعريفا مستقلا عن القيم التى تتصل به .

---

(٤٠) Thomas S. Kuhn, The Structure of Scientific Revolution, Chicago Press, 1962.

فى كثير من الاوجه تشبه الامور « غير السوية » عندكوهن مايسميه باشيلارد « عقبات نظرية المعرفة» كما نجد فكرة « النموذج المثال » غامضة فاننا نجد فكرة « عقبات نظرية المعرفة » محددة وثرية للدرجة انها الاساس الذى يفسر تلك الامور « غير السوية»

(٤١) المرجع السابق ص ١٧٠ Thomas S. Kuhn,

(٤٢) المرجع السابق .

يقول جورج كانجاهم : « كل من الموقفين يتدل الى درجة معالجة موضوع تاريخ العلم كأنه من موضوعات العلم » (٤٣) .

سواء كان الادراك متأخرا أو كان النظر فى العواقب سابقا ، فما يزال سوء الفهم واحدا . فاذا وجد المرء هنا وهناك فكرة الالتحام بين العلم والمجتمع وقد صيغت فى كلمات مطلقة تشبه التفسيرات المثالية ، فان مرجع ذلك الى افتراض أن موضع النظر فى الحالين يمكن تحديده باعتباره موضوع علم من العلوم . ان فكرة العلم البحث المحتمى فى البرج العاجى لدرجة أنه لا يصيخ السمع لضوضاء العالم الحديث ، تواجه تحديا من تطور العلاقات بين المعرفة والقوة ، وتعارضها أحوال تدخل القوة وعدم استقلال المعرفة ذاتها ، ويمسخها غياب حدود واضحة بين مراحل البحث العلمى المتصلة . ولكنا نجد هنا أن المتطلبات والاستجابات الاجتماعية التى يكون العلم موضوعها لا تعلل تعليلا ميكانيكيا الدروب التى يسلكها العلم . نجد مثل ذلك فى مجال التنبؤ بالنتائج الممكنة للعلم ، اذ هى لا تحدد تحديدا ميكانيكيا العمليات المطلوبة لتحقيق تلك النتائج . ان تطلع المتنبئين التكنولوجيين الى توجيه العلم ، وتوجيه المجتمع ، على أساس التنبؤ بالاتجاهات الممكنة ، لا يذهب بمعامل التشكك المرتبط بالاستكشاف والاختراع . والحق أن الفكرة القائلة بحتمية العلم الهادف والنافع ، وهى أساس تصور مستقبل العلم فى ارتباطه بحاجيات المجتمع ، لا تؤدى الى تطبيق التقنيات المتاحة التى يمكن أن تصبح متاحة (٤٤) . لسنا نسمح قط بالاعتماد على الحدس والتخمين فيما يتعلق بمستقبل النهج العلمى ، ثم اعتبار ذلك من الرشد ومما نتناوله كأساس علمى لما يمكن أن يتخذ من القرارات السياسية ،

---

(٤٣) Georges Canguilhem, Etudes d'histoire et philosophie des Sciences, Paris, Vrin, 1968

يشير فى المقدمة ، ص ١٥ ، الى حوار بين اسكندر كويرى وهنرى جيرلاك فى مؤتمر عقد باكسفورد فى يوليو ١٩٦١ ، عندما اتهم جيرلاك كويرى بانه «مثالى» أى أنه يعتبر النشاط العلمى نشاطا نظريا وبأنه يقبل حقائق تاريخ العلم وهى واقع استقلال العلم عن الامور الاجتماعية (اشارة الى كتاب :
Henery Guerlac : Some Historical Assumptions of the History of Science. A.C. Crombie ed., London 1963, pp. 797-812).

والرد فى كتاب

Alexandire Koyré, Etudes d'histoire de la pensée (Scientific, Paris, P.U.F., 1966, pp. 352-361).

(٤٤) يقارن جانتش بالاضافة الى ذلك أفكار كوهن بأفكار ر.ج.هـ.سيو الذى يقترح فى كتابه The Tao of Science اضافة الى المعرفة الغربية التى تعتمد على العقل بعض العناصر التى تعمق أعاجيب الطبيعة . هنا يصبح الخلق العلمى « اشعاعا من اللامعرفة ليس عقلانيا وليس الهاما ، انما لدنيا (العلم اللدنى) . ليس هناك نموذج أفضل من هذا على هذا الخلط بين مجالات العلم والكهنوت فى التنبؤ التكنولوجى . ولعلنا نتساءل عن الجدوى العملية التى يمكن أن يستخلصها المتنبئون التكنولوجيون من هذا كله .

R.G.H. Siu, The Tao of Science, M.I.T. Press, 1964, chaplev 9.

ليس لمثل هذا الأساس العلمي وجود ، والحدس والتخمين لا يفقدان صفتهما بمجرد البعد عن التجليات الالهامية والاعتماد على أدوات رياضية .

حقا توجد بعض القراءات الاستراتيجية التى تأخذ شكل الحتميات المحددة في المجالات التى ينبغي تركيز الجهود فيها نظرا للنتائج التى تتوقع منها . فالدولة التى ترغب فى تزويد نفسها بالقوة النووية يجب أن يكون لديها باحثون أكفاء قادرون على حل مشاكل الانشطار الذرى ، ومتمكنون من علوم المفاعلات . مثال آخر نضربه بموضوع البيولوجيا الجزيئية الذى أصبح الآن علما من « علوم المستقبل » واضح المعالم . نحن نتوقع من دراسات مادة الحامض النووى فى غضون العقد القادم نتائج هائلة تشبه تلك النتائج التى برزت فى مجال علم الفيزيقا فى الثلاثينيات فيما بعد اكتشاف النيوترون . ولكن هذا التحديد لا يمكن أن نعتبره تحديدا موضوعيا ولا نهجا محددا للامكانيات التقنية المستقبلة وآثارها على المجتمع جميعا . ذلك لأن هذه التوقعات مهما تخفت فى صياغة رياضية ماتزال منذ البداية ترزح تحت وطأة القيم التى يتشرب بها واضعوها . يقول جانتش « ولعل المرء يستطيع التجرؤ والتنبؤ بأن التنبؤ التكنولوجي سيصبح فعالا ومؤثرا على توجيه البحوث الأساسية فى المستقبل القريب » (٤٥) . يستطيع المرء ولا شك أن يتجرأ ، ولكن اذا كان للبحث العلمى الأساسى أن يتعرض للتوجيه تعرضا متزايدا ، فان ذلك لا يرجع الى أن الصياغة الاسمية للنبوءات الموجهة يكون لها فى الغد عزم احتمال أكثر من احتمالها اليوم ، انما يرجع الى أن ما تحدده النبوءات باعتباره محتملا ، سيتزايد الخلط بينه وبين ما نعتبره مرغوبا فيه سواء كان ذلك صراحة أو ضمنا (٤٦) .

ليس فى تاريخ العلم فكرة البشير السابق بالمعنى الدقيق للكلمة ، ذلك لأن البشير يوصف بانه رجل لا يمكن القول بأنه ذهب ، الا بعد أن يكون قد ذهب فعلا ، ومثل هذا يقال عن التنبؤ التكنولوجي ، اذ انه لا يتنبأ بالمعنى الرياضى والحتمى للكلمة ، ومن ثم لا يتنبأ بالفتوحات التكنولوجية والعلمية التى ستتحقق غدا ، أو تأثيراتها الاجتماعية ، انما يمكن أن يقوم بوظيفة الدليل « اذا أصبحت كل الأشياء متساوية » ، أى أن التنبؤ يخاطر بالعامل الذى يقول بانه يقصيه : انه يقامر على المستقبل . يقول جورج كانجلهم « ان الموضوع الأساسى لمؤرخ العلم يمكن أن يتحدد

---

(٤٦) يقول جانتش فى مجال التعليق على نتائج « مشروع النظرة للخلف » : « ان فقدان التفكير المعيارى يذهب بفائدة البحث الاساسى ويمحى اثره الا فى أغراض تطوير الدفاع الامريكى » . كتاب **التنبؤ التكنولوجى** ، ص ٥٤ .

هذا غير صحيح فى المقال الاول ، وأما فى المقام الثانى والاهم فانه يتضح أن تعريف الفائدة يحمل هنا معنى التعريف المسبق لما هو محتمل . عن «مشروع النظرة للخلف » انظر تقرير س٠و٠ شيرون آخرين ، مكتب مدير بحوث وهندسة الدفاع بواشنجطن ، ١٩٦٦ .

بالقرار الذى يخص الموضوع بمجال من الاهتمام وبمدى من الأهمية (٤٧) . وعلى نفس النمط نقول بأن الموضوع الأساسى للمتنبىء التكنولوجى تتحدد آفاقه بقرار من المتنبئين التكنولوجيين انفسهم ، لأنهم يعالجونه فى اطار اهتماماتهم . فاذا كان التنبؤ التكنولوجى « معياريا » ، فليس هذا لأنه يجد بين يديه مجموعة جاهزة من القيم ، مختزنة فيما يمكن أن يسمى « صندوق الامكانيات » فى العلم ، تستنبط مسبقا على شكل صياغة للعلاقات بين التطبيقات العلمية والاحتياجات الاجتماعية ، انما لأنه يصبغ بلون قيمه الخاصة المستقبل العلمى الذى يدعى التحكم فى مفاتيحه . ان المدى المعيارى للنبوءة ليس هو المـدى الموضـوعى والمنطقى والراشـد للنهج العلمى . ورغم الأداة الرياضـية التى تحيط النبـوءة بها نفسـها ، فان التنبـؤ التكنولوجى لا يزيد على كونه عنصرا من عناصر المدى غير المحدد المعالم والذى تتخذ فيه القرارات وتطبق . اذا قدم الأنبياء النصح للأمير ، فعليهم أن يتأكدوا من صدق بصرهم بالمستقبل اذا استطاعوا هم أن يقوموا بتحقيق نبوءتهم .

الكاتب جين جـاك سـالومون

ولد فى ميتز عام ١٩٢٩

يتولى أمانة المؤتمرات الوزارية العلمية لمنظمة التعـاون والتنمية الاقتصادية .

يشغل الان منصب رئيس قسم الدراسات العلمية لهذه المنظمة دعاه فى عامى ١٩٦٨-١٩٦٩ مركز الدراسات الدولية لمعهد ماساشوسيتس التكنولوجى لندوة دراسية فى العـلم والشئون العامة الاوربية

المترجم : الدكتـور محمـد عبد الفتـاح القصـاص

الاسـتاذ بكلية العلوم بجـامعة القـاهرة



المقال فى كلمات

ان الوسائل الآلية كالتصوير الفوتوغرافى والنسخ احدثت فى الفن ثورة عارمة ، فهل سيؤدى هذا الى تغيير نظرتنا له ؟ هذا هو موضوع المقال • ويرى الكاتب ان انتشار الأعمال الفنية ودخولها الى جميع المجالات وغزارتها الهائلة يبدو لأول وهلة مظهرا واضحا من مظاهر التقدم ، ولم يخطر ببال أحد قط أن يضع موضع الشك أو المناقشة قيمة النعم التى منحتها ايانا الآلات فى ميدان الفن • كما يرى الكاتب أنه فى استطاعتنا الآن أن نتخيل سـيكلوجية جديدة فى العلاقة بين المشاهد للاعمال الفنية وبين الأعمال الفنية ذاتها منشاها وفرة الصور التى حلت محل قلة الأعمال الأصلية ، تلك الوفرة التى جعلت العصر الذهبى للفنون المتاحة للجميع على الأبواب • كل منا يستطيع الآن بثمن قميص أو وجبة طعام أن يقتنى أعمال كبـار الفنانين ، وأن يقيم فى منزله متحفا للصور حقيقيا لاخياليا • وتدلنا الملامح الرئيسية لهذا الوضع الجديد على بداية ثقافة فنية ديمقراطية عالمية ، اذ أن فن التصوير الفوتوغرافى وتعدد الصـور لم يكتف بازالة الحدود الطبقية ، بل أزال كذلك الحدود السياسية والجغرافية •

ولا شك أن هذا غير ذوقنا الجمالى أى ترتيب القيم فى نظرنا • ومن أبرز ميزات الفن المعاصر التقليل من قيمة العمل اليدوى • ويبين لنا الكاتب الفرق بين العمل الفنى الأصيل وبين صورته الفوتوغرافية ، فالعمل الأصيل لم يعد بعد نقله بالتصوير ذلك الشىء ذا الطابع الشخصى ذى الشخصية الكاملة ، فالصورة الفوتوغرافية ((تقلد)) ، بالعمل الفنى الأصيل لأنها لاتحمل مافى اللوحة المرسومة باليد من المميزات الخاصة • ويتحـــدث الكاتب فى مقالة عن العمل الفنى الأصيل والعمل الفنى ((المقلد)) ، وهدف الناس من زيارة المتاحف الآن واختلافه عن هدفهم فى الماضى • ويرى الكاتب أن الفنانين كانوا يفكرون فى المجد فى الماضى ، أما اليوم فالذى يشغل بالهم انما هو التجريد الدائم للأشكال والآلات والتعبير • ومن رأيه أيضا أن انتشار الصور بالغزارة التى نشاهدها لايمكن الاعتراض عليه فنيا ، ولكن المهم فى نظره أن يظل الناس ، حين تقديرهم للفن ، متمسكين بالمعايير القديمة ، ولا يجرفهم هذا النظام المصطنع الذى يجعل تقديرنا للفن مبنيا على أساس جودة الورق المطبوع •

أدت الوسائل الميكانيكية والاقتصادية الحديثة الى انتشار المعرفة بالفن فى وقتنا الحاضر : فالتصور الفوتوغرافى والنسخ وكذلك الأسواق الجديدة التى افتتحت لرواج « الثروات الثقافية » قدمت بسخاء الكثير من صـــور الأعمال الفنية لجمهور يتزايد عدده يوما بعد يوم • وهذه الثورة فى مجال نشر الفن تشبه الثورة التى حدثت قبل ذلك فى مجال نشر الكلمة والفكرة بعد اختراع الطباعة ، ولو اننا لانعرف حتى الآن ما اذا كانت هذه الثورة ستكون لها فى ميدانها ماكان للطباعة من الأهمية .

وعلى كل فمن الواضح أن الكتب التى تكتب عن الفن قد أصبحت الآن « وسيلة جماهيرية للاتصال » وذلك لسهولة تداولها ولكثرة عدد قرائها بالقياس الى ما كانت عليه الأمور فى الماضى • فمنذ خمسين عاما لم يكن التنظيم الاقتصادى والوســـائل الآلية تتيح الا للفئة القليلة المحظوظة الاطلاع على الحياة الفنية وذلك عن طـــريق الأسفار التى كانت تكلف المال الكثير وتقتضى الوقت الطويل ، اما البقية الباقية من الجماهير فلم يكن أمامها كبديل للأعمال الفنية الا الصور المطبوعة التى كانت تفتقر فى كثير من الأحيان الى الاتقان والجودة • أما الآن فقد انتشرت الصور الفنية الجيدة عن طريق الكتب الشهرية التى يتداولها الجمهور الكبير ، والمجلات التى تنشر فى

أعياد الميلاد والمناسبات الاخرى ، بهدف الدعاية لهدايا نافعة يراد الاعلان عنها ، صور الاعمال العظيمة لمشاهير الرسامين مثل الصور التى تعبر عن مولد المسيح وغيره ، والمؤلفات الجادة النفيسة . ولكن هذه الوسائل كلها تشترك فى أنها تتيح لكل منها أن يلتقى بدنيا الفنون ويستمتع بها وهو فى منزله أمام المدفأة ، ومن هنا فانها تسهم جميعا فى احداث نفس التغير ٠

وهدفنا الوحيد من هذا البحث هو معرفة ما اذا كانت نظرتنا وقيمنا ومشاعرنا تجاه الفن ستتغير بالتطور الذى حدث فى انتشار الفن أم أنها ستظل كما كانت فى المـــاضى ٠

***

من السمات الخاصة للعالم الذى نعيشه الآن هو أن صور المنتجات أصبحت أسرع انتشارا وأكثر عددا من المنتجات نفسها ٠ ففى الماضى كانت تقوم علاقة مباشرة وملموسة بين الصانع والمستهلك ٠ كان المستهلك يستطيع أن يشاهد الصانع والسلعة التى يصنعها ، بل وفى كثير من الاحيان الطريقة نفسها التى تصنع بها هذه السلعة ولم يكن يدرك نفعها الا بعد رؤية أطوار انتاجها ، فى المصنع أو فى الحانوت ٠ أما اليوم فوسائل الاعلام والاعلان مثل الصحف والمجلات ودور الخيالة تنشر الصور المتعددة للسلع وهذه الصور هى التى تثير رغبة المشترى وتساعده على اختيار مايرغبه، ذلك أنه يشاهد الصور قبل أن يشاهد السلعة دون بحث أو عناء ، بل على العكس فصورة السلعة هى التى تبحث عن المشترى وتثير رغبته خوفا من أن يعرض عنها ٠

وهذه الحالة ولو أنها فريدة فى التاريخ الا أنها منطقية بالنســبة للاقتصـــاد الجماهيرى السائد بيننا ٠ فنشر صور المنتجات هى الوسيلة الوحيدة لرواجها ٠ لكن هذه الأسباب ذاتها لها نتائج أخرى ، فعالم الفن يتميز اليوم بظاهرة مماثلة نشأت من تعدد نشر صور الأعمال الفنية التى لم تعد التقويمات السنوية المعلقة على الحوائط هى وحدها التى تنشرها ، بل أصبحت « الألبومات » والكتب والمجــلات الدورية تزخر بها ٠

أثر الاقتصاد على نشر الفن :

والسبب فى هاتين الظاهرتين انما هو تطور الأسلوب الفنى « التكنيك » ٠ فلم يكن لصور الأعمال الفنية أن تتعدد وتكثر الا بالتصوير الفوتوغرافى ثم بالنسخ وبعد ذلك بتحسين عملية الطبع وتجويدها بطبع الألوان على الصور ، ولكن التغيير الذى

حدث فى الحياة الاقتصادية كان من أهم الأسباب التى أدت الى هذه الحالة الجديدة ، فزيادةدخل الأفراد وتوزيعهتوزيعا عادلابينجمهور كبيرمن «أصحاب الياقاتالبيضاء» ، والعمال المهرة ، وتعـــود المجتمع « المعجزات التكنولوجية » ورغبته فى الثقافة التى دعمها التعليم ، هذا التعليم الذى لاينفصل عن التقدم الاقتصادى ، كل هذا جعل الجماهير تقبل على الأسواق الفنية وجعل العملية ، التى تخضع بضرورة حتمية ، عملية مريحة • ونحن نرى أن كل تطور تكنيكي ـ والتصوير الفوتوغرافى أحد الأمثلة له ـ يبحث عن أسواق يروج فيها بضاعته ويخلفها فى الوقت نفسه ، كما أن كل تقدم موضعى يفيد من التطور الأعم ومن مساندته له المساندة اللازمة الدائمة ، ولكن فى مجال حديثنا هذا نقول ان كل هذه العوامل مارست تأثيرها معا ، فالمدرسة بثت فى النفوس مشاعر الاعجاب بالفنون الجميلة ، وأوقات الفراغ تحققت بعدانخفاض ساعات العمل وازدياد أجر العامل وجميع وسائل الاعلام أدت عملها وأثارت فى نفوس الناس الحاجة الى استهلاك الفن ، ضمن حاجاتهم الأخرى •

وهكذا فان انتشار الأعمال الفنية عن طريق تعدد نشر الصور يبدو للوهلة الأولى مظهرا واضحا من مظاهر التقدم ، ولا شك أن الآلات والتجار قد ساهموا بهذه الطريقة فى تقدم الثقافة وأصبح هذا العمل الجديد عملا يوصف بأجمل الأوصاف ، اذ يوصف بأنه عمل ديمقراطى ومنطقى ، ذلك لأن عامة الشعب من الذين لم يستنيروا بالعلم والبعيدين عن ميادين الثقافة أصبحوا يشـــاهدون الأعمال الفنية العظيمة عن طريق صور صادقة لها • كما أن الاستعانة بهذه الصور يدعمها ، فى نظر الجماهير ، تلك السمعة الطيبة التى تلحق بالتكنيك • فوفرة الصور تبدو أمرا بديهيا ، شأنها فى ذلك شأن الآلات الجديدة، فلا يشك الناس فى قيمةهذه الآلات، وكمالها ويثقون فيها كما يثقون فى سرعة السيارات وسرعة الصواريخ • ومهما يكن فان أحدا لم يخطر بباله أن يضع يوما موضع المنافسة أو الشك قيمة النعم التى منحتنا اياها الآلات فى ميدان الفن ، وكأنه واحد من تلك الميادين التى تنتفع بآلات توفر الوقت والجهد.

ان المرء أمام اجماع الآراء على أن لايقوم الفنانون أنفسهم بنسخ الأعداد الكثيرة من أعمالهم الفنية • وأمام منطق التطور أو أمام معنى التاريخ يخشى أن يوصف بسوء النية أو بعدم المعرفة اذا ما أظهر مخاوفه من هذا التعدد ، ولكن هذا لايهم فيجب أن يثير كل جديد الدهشة • وفى حقيقة الأمر فان عالم المعرفة السهلة هذا لم يستكشف أبدا • فلم تجرى دراسة لعدد المهتمين الجدد بالفن ، ولا لتوزيعهم بين مختلف طبقات المجتمع ولا لمسلكهم تجاه سبل المعرفة القـديمة كمـا حدث عند دراسة عادة قراءة الصحف : فكم من الناس وقع نظرهم منذ عشرين عاما فقط على صـــورة (الفتاة الصغيرة ذات العمـامة) للرســام فرمير هـذه الصـــورة التى نسخ منها أعداد لانهاية لها ؟ وعلى العكس كم منهم استطاع أن يشاهد العمل الفنى الأصلى وأن يكتشف فى مدينة دلفت ثم فى لاهاى هذه « اللؤلؤة المنيرة » ؟ ولكن هذه المقـارنة

الحسابية البسيطة التى تتردد كثيرا بالنسبة للاعمال الادبية الكلاسيكية التى يعيد التليفزيون عرضها، ليس لها مكان فى بحثنا هذا .كما اننا لانعرف العلاقة التى يمكن أن تقوم بين نسبة التردد على المتاحف وانتشار الألبومات • ولا يبقى لنا بعد ذلك الا أن نفترض ونقارن ونستنتج دون أى يقين ؛ ولكن الأهم هو أن نفكر • والحق أنه لو لم يخاطر أحد من جيلنا بالتفكير فى هذا الموضوع ، فان شيئا ما قد يكون مآله الضياع بغير أن يكلف أحد نفسه معرفة هذا الشيء أو التحدث عنه « فالموجات الجديدة » قد تنسى ما كانت عليه تجربة اكتشاف النسخ الأصلية الفريدة المحفوظة فى محراب الفن، عندما نتعود الالتقاء بهذه الأعمال الفنية العظيمة عن طريق الصور المطبوعة التى ينشرها الناشرون. ان معجزة تضاعف عدد أرغفة الخبز لم تحدث الا مرة واحدة ، أما معجزة تضاعف عدد الصور فهى مستمرة مادام التاجر والمستهلك يرغبان فى ذلك •

سيكلوجية جديدة بين الفن ومشاهديه :

ويمكننا منذ الآن أن نتخيل سيكلوجية جديدة فى العلاقة بين المشاهد للأعمال الفنية وبين الأعمال الفنية ذاتها ، منشأها وفرة الصور التى حلت محل قلة الأعمال الاصلية . فالمعرفة والثقافة ، ونعنى بهذا التعبير المعرفة التى يكتسبها المرء بمحض اختياره وخلال أوقات فراغه ، يمكن أن يختلف معناهما فى هذه الحالة . فنحن هنا لسنا فى ميدان الأدب الذى ينتقل كما هو مهما تعددت طرق النشر، فسواء نشر الأدب فى كتب الجيب أو طبع فى طبعات فاخرة فانه دائما ثابت لايتغير ، ذلك لأن الادب ليس الا كلمات والفاظا ، وسواء كتبت هذه الالفاظ بطريقة واضحة أو بطريقة زخرفية ، وسواء كتبت على ورق الصحف أو على ورق فاخر ، فالأمر سيان : ذلك لأن الكلمات والألفاظ لها صفة الدوام ، أو اللوحات والتماثيل ، هذه الأشياء التى لابد لها من حيز تشغله ، فلا يمكن للمرء أن يؤكد أنه يمكن أن تحل محلها الصور •

***

فى باريس وحدها زار معرض بيكاسو أكثر من مليون شخص ، ومثل هذا العدد وفد على معرض بونار • وفى « القصر الصغير » رأينا الزوار يهرعون بأعداد هائلة لمشاهدة كنوز الفراعنة فكان ذلك انتصارا واضحا للمعرفة وحب الفن ، ولم يكن يعقل أبدا أن يكون انتقال هذه الجماهير التى سارعت الى هذه الأماكن لتمتع نظرها بجمال الفن أمرا لا علاقة له بانتشار صور الأعمال الفنية التى مازالت فى تقدم مستمر • فبعد الألبومات التى مازالت أسعارها مرتفعة أصبحت الآن المجلات الشهرية التى يناسب ثمنها كل جيب تزخر بهذه الصور • وهكذا نجد أنفسنا ، بلا شك ، ازاء ديالكتيك حقيقى للتقدم . فالكتب والصور الفوتوغرافية المتعدة تقود الناس الى

المتاحف ، وهذه بدورها تعيدهم الى الكتب • والذى لا يستطيع المتحف أن يقوم به سيحققه الألبوم • فالعصر الذهبى للفنون المتاحة للجميع على أبوابنا •

ان كلا منا يستطيع الآن بثمن قميص أو وجبة غذاء أن يضـــيف الى مجموعته الخاصة أعمال بوسان أو ميرو بأكملها . وهكذا تتحقق « بيننا وتحت أسقف منازلنا » كما تمنى بيان أنصار المساواة مساواة جديدة رائعة أمام الثقافة الفنية، وهكذا يمكن أن يكون لكل منا فى منزله متحف ليس خياليا بل متحف للصور وأكثر من ذلك متحف حقيقى. واذا ماقلنا أن الاعمال الفنية مهمتها تزيين الجدران فاننا نشاهد الآن عشرات الحوانيت تعرض صورا لأشهر الرسامين مرسومة على الورق أو النسيج أو الخشب بمقاييس تناسب كل بيت وثمنها معتدل للغاية ، ان الناس فى الماضى لم يكونوا يؤمنون بالتقدم فى الذوق ، تماما كعدم ايمانهم بالتقدم فى الاخلاق • ولكن هذا كان خطأ فالذوق فى تقدم مستمر ، منتقل من البيوت البورجوازية الى المنازل الشعبية ، حيث حلت صور فان جوخ بروجل وبيكاسو محل الصور الملونة ونتائج الحائط بل وحتى محل الصور العائلية •

واذا تأملنا الملامح الرئيسية لهذا الوضع الجديد وجدناها تدل على بداية ثقافة ديمقراطية منطقية عالمية •

ديمقراطية التـــذوق :

أما ديموقراطية التذوق فهى واضحة جليا فيها • ذلك أن انتشار الصور يزيل شيئا فشيئا التفرقة بين الطبقات . ولو أن التعليم وأوقات الفراغ وارتفاع مستوى الحياة ساعد على السير بخطى سريعة نحو التطور • ففى الماضى كان يجب على المرء أن يتنقل ويمتلك ويتلكأ ، فكانت الطبقة البورجوازية وحدها ، التى لديها الوقت والمـــال ، هى التى يمكنها أن تســـتمع بترف التعـــرف على الأعمـــال الفنيـــة . فكان الرئيس دى بروس (١) واســـقف دير ســـانت نون والطبيب برجـــريه . واشراف انجلترا يســـــافرون الى ايطاليـــا ويمكثون بهـــا شـــهورا ، وكانت هذه مسألة مستوى معين فى الثروة ، وطريقة حياة تتيح لهم الوقت الطويل الخالى من العمل • ولذلك كان هؤلاء المحظوظون هم الذين يستحوذون على أسرار الفنون ويتمتعون بها . وعلاوة على ذلك فقد كان للبورجوازية أثر واضح فى صبغ الأعمال

---

(١) قاض وكاتب فرنسى عاش فى القرن الثامن عشر ، وله مؤلفات أشهرها وصف اسفاره فى ايطـــاليا •

الفنية بصيغة مستمدة من طبيعتها الخاصة ، وكأنهم قد وضعوا لها لائحة خاصة . فباستثناء اللوحات والتماثيل المحفوظة فى المنشآت العامة كالكنائس والمبانى المدنية فى القليل النادر ، كان الفن يصنع لكى يمتلك . ولقد أبدى البعض اعجابه بوجود بعض جامعى الأعمال الفنية الكبار فى القرن الماضى من الفقراء مثل ولغردان الساعاتى ، ولاكاز الطبيب . وجيجو وبونا المصورين ، ولكن هؤلاء « الفقراء » كانوا فى الواقع بورجوازيين اقل ثراء من غيرهم من محبى الفنون من امثال اتدريه وجرولت . ويقال أن دخل لاكاز كان يبلغ قيمته ٢٥٠٠٠ فرنك ، وهذا المبلغ لايعتبر الا ثروة صغيرة ، الا انه كان يعتبر ثروة على أى حال .

ولكن سهولة تداول الكتب والصور الفوتوغرافية حاليا وضعت حدا لهذا الظلم . وليس السبب الوحيد لذلك هو أن اثمان الكتب والصور لايمكن مقارنتها بأثمان الأعمال الفنية نفسها ، أو أن عددها يتيح نشرها نشرا عادلا بين الناس . بل ان امتلاك الكتب يعتبر من زمن بعيد الخطوة الأولى نحو الارتقاء الى مستوى الطبيعة المثقفة ، فالقراءة فى رأى سارتر مكافأة لانها بقوة تأثيرها وقوة ضغطها على التعلم تدل على دخول المرء الى عالم الفكر .

وقد ساعدت الألبومات على الافادة من سهولة التداول هذه فى ميدان جديد ظل حتى وقت قريب مقصورا على الطبقة ذات الامتيازات. فلم تعد الطبقة البورجوازية تستحوذ على الأدب منذ اللحظة التى لم يعد التعلم مقصورا عليها ، اذ سرعان ما انتشر المدرسون وخريجو الجامعات ، بل عمال الطباعة ، أما فى حالة الفن فقد ظل منتميا الى مجال محدود مما يفسر وصف المثقفين ثقافة فنية بالتعالى . ولكن جيلنا الحاضر يرى بعين الأمل أو بعين الأسف نهاية هذا الوضع ، وهذا هو أول وأوضح أثر من الآثار المترتبة على ظهور أسلوب جديد فى الصناعة وعلى أمل جديد فى الاقتصاد .

ومما يزيد من حدة هذه النتيجة وقوة تأثيرها أن التعليم يقدم الأفكار والكلمات اكثر من الصور والأعمال الفنية ، كما أن التربية المدرسية والجامعية تنصب على المعرفة الأدبية والعلمية أكثر مما تنصب على الفن . وهكذا فان وظيفة المدرسة — كما تصورها السياسيون والمفكرون — تركت للفن امتيازاته الأولى ولاشك أن هذا التفضيل كان راجعا الى تقدير صحيح للأولويات الملحة ، ولكن النشاط الذى دب فى الاعمال ظهر فى ميدان الفن لتعويض التأخر الذى حدث فيه واستكمال العمل

أما الاعلانات والدعاية التى تهدف الى بيع المجموعات ، فهى فى هذا الصدد صريحة الى حد السذاجة : اذ أن الأفكار التى تود أن تبثها فى النفوس هى أنها تجعل

من بيتك متحفا وتوصل الى الجميع تلك الأعمال الفنية التى كانت عزيزة المنال • وفى النهاية فان هذا العمل لايعيد الى الجمهور حقه فحسب ، بل يشير الى حدوث انقلاب فى الامتيازات ، اذ أن الثقافة الجديدة ستكون أفضل وأكمل من الثقافة القديمة •

الثقافة الفنية فى البيوت :

وهكذا فبطبع صور الأعمال الفنية وتجميعها بالألبومات تدخل الثقافة الفنية البيوت ، وهذه الألبومات التى يمكن تداولها يمكن أخذها أو تركها وتقليب صفحاتها ، وكذلك شراؤها أو استعارتها بعكس الأعمال الفنية التى تتميز بأنها تساوى بين الجميع لأن الكل يستطيع اقتناءها . وبفضلها أصبحت الثقافة الفنية مثل القراءة تمارس فى المنازل وحجرات النوم •

ولكن ليس هذا فقط ما يجعل للألبوم مكانته ، فاجتماعيا له المكانة الأولى بلاشك، أما ثقافيا فله المكانة الثانية • فقد حققت عملية النشر فى ميـدان الثقافة ما كان مستحيلا قبل ذلك وهو تجميع الأعمال الفنية بطريقة منظمة • فالمتحف له طـريقة فى اختيار ما يعرض فيه من تحف وطريقته هذه تقوم على أساس ترتيب القيم الجمالية والتاريخية • والقطعة المعروضة أفضل من القطعة التى لم تلق اعجابا لـدى أمناء المتحف . ويقال « عمل جدير بالعرض فى المتاحف » للتعبير عن قطعة فنية قيمة . ولكن هذه الطريقة تخضع للوقت والصدفة ، فالمجموعات الفنية العامة هى مجموعات جمعت بينها مصادفات المنح أو الوصية أو الاستيلاء أو جمع بينها مصادفات الاختلاف بين أثمان القطع ومقدرة الأمناء على الشراء • فمتحف اللوفر مثلا أقيم للاستـجابة لتذوق عدد من ملوك فرنسـا ، ووافقت عليه الثـورة بعد ذلك ثم أضيفت اليه مجموعة لونوار وكذلك الهبة التى قدمهـا كامندو علاوة على ظروف كثيرة أخرى شـاركت فى جمع تحفه وكانت فيها الصدفة عاملا له أهميته تماما مثـل الارادة والعقل ، فاذا أردنا مثلا مشـاهدة صـور مواقع أوسـاو الثلاث فلابد لنـا من الذهاب الى لنـدن ثم باريس ثم فلورنسـا . وهناك مثل واضح جـدا لذلك . وهو صـورة البشـارة فى اكس التى قسـمت بين كنيسـة اقليمية ومتحف ومجموعة خاصة ، حتى الدراسات التحضيرية من رسم وتخطيط نجدها منفصلة عن العمل الفنى فى النهاية ، كما أن هذا العمل بعيد عن التفسيرات اللاحقة به فهنا لا يخضع شىء لنظام أو ترتيب وهما بداية كل علم ووسيلة كل منطق .

أما الكتاب فهو على العكس لا يخضع للصدفة التى تشـتت الأعمال الفنية ، ولكنه يجمعها على أساس منطقى خالص • فالكتاب يجمع الصور التى تعبر عن موضوع معين أو فترة من الزمن معينة أو حياة فنان معين لهـا معنى خاص تبعا لتسلسل

منطقى . فلوحة سكريبتا فولانت التائهة بين ملبورن وريو وبودابست تنضم فيه الى أى لوحة أخرى توافقها أو تكملها طبقا للمنطق • لذلك نرى الكاتب يطمع فى أن يطبع المهم من الموضوعات التىيقدمها ، وعلى ذلك فالترتيب منطقى فيما يعرضه ، والنظام الذى تظهر به الصور يعبر عن فكرة معينة . وهذه الميزة البارزة التى لاتحققها اى مجموعة من الأعمال الفنية الاصلية تبين لنا عملية الاعلان التى تقدم للجميع كنوز الفن واعماله العظيمة وتوضح العنـاوين التى تعلن لنا عن « البواتو الرومانى أو « فلاسكس » بمعنى ان القارىء سيجد فيها كل ما يميز شخصية خلاقة او جميع الاعمال الفنية العظيمة لفترة ما أو لبلد ما .

اذن فالمقارنة هنا ممكنة ويسيرة . فالكتاب بدلا من أن يتحدث عن الذكريات وما يكتنفها من غموض يعرضها مقترنة بالصور ، فهو اذن الأداة الكاملة لثقافة معينة فضلا عن ذلك فعملية اختيار ما يعرض فيه انما يقوم بها أحسن الأســـاتذة وألمع المتخصصين ، فيعرض كنوز المعرفة لمجتمع القراء الذين تحرروا أخيرا من عبودية الفقر أو الغنى والذين هم أكثر الناس انصافا ونزاهة . وكما هو الحال فى كل وسيلة من وسائل الاعلام نجد اختلافا ، وحتى نوعا من التوتر بين مجموعة أصحاب الرسالة ومجموعة الذين يتلقون هذه الرسالة ، ولكن هذا الاختلاف فى صالح المعرفة نفسها • وبالكتاب تنتشر الثقافة لا بالتساوى بين الجميع فحسب ولكن أيضا فى هذه المرة للصالح العام وللخير العام لا للشر أو السوء . وهذا ما يسبب تشاؤم المتشائمين .

تصوير الفن حطم الحواجز السياسية :

وماذا بعد ؟ أيجب علينا أن نبين أن فن التصوير الفوتوغرافى وتعدد الصور لم يكتب بازالة الحدود الطبقية بل أزال أيضا الحدود السياسية والحضرية والجغرافية؟ ان المسافات لم تعد طويلة كما كانت فى الماضى والأسفار أصبحت أكثر يسرا وأقل تكلفة وأوقات الفراغ صارت أكثر طولا ومع ذلك فلو لم يفتح لنا الألبوم أبواب البلاد البعيدة جدا عنا لبقيت هذه البلاد مجهولة لنا لا نعرفها الا على الخرائط . فالآلـــة الفوتوغرافية لاتعرف المسافات بالنســـبة للزمن والمكان والمجتمع • فبلاد الهند والمكسيك والقسطنطينية وفنون أفريقيـا واسـتراليا لم تعد أسرارا يحتفظ بهـا المتخصصون أو المستكشفون . فالكتب أصبحت تحمل الينا فى منازلنا كل غريب ، تحمل الينا « بربرية » المدنيات المغلقة •

وقد غير هذا الأمر وحده ذوقنا الجمالى أى ترتيب القيم فى نظرنا • فالحركات الفنية الكبرى لاشك أنها استلهمت كثيرا من الماضى فقد ردت الحركة الفنية فى عصر النهضة اعتبار فن العصور القديمة ، كما أن الحركة الفنية فى العصر الرومانتيكى

استلهمت من فن العصور الوسطى . وهكذا بالطريقة التى أدركها مالرو تنبعث من جديد الثقافات البعيدة فى الزمان والمكان يحتفظ بها فى معبد عظيم يقوم ببنائه كل شعب وكل جيل حسب تفكيره وآرائه • ولكن هذه الاضافة التى كانت قديما تحدث فى أضيق الحدود أصبحت تكدسا منذ نصف قرن تقريبا • فالقرن التاسع عشر الذى ورث الرومانتيكية كان قد أعاد الى الحضارة التشكيلية الخطوط التى كانت سائدة فى العصور الوسطى بادئا بالخطوط الأقل قدما ، وكان هذا قليلا اذا نظرنا الى دنيا الفن الشاسعة الواسعة التى ظلت طويلا مجهولة تماما أولا تثير الا الفضول ، كما أن الفن الصينى لم نعجب به الا منذ عصر لويس الرابع عشر وكنا نعجب بجمال اتقانه فنيا أكثر من اعجابنا بما يميزه . واكتشافنا بعد اخوان جونكور الطابع اليابانى فى اللاكيه و الانرو شىء لا يستحق الذكر .

وتدفق « البربرية » الحقيقى لم يحدث حوالى القرن الرابع أو الخامس لكنه حدث فى القرن التاسع عشر تقريبا عندما فتح الغرب فجأة حدود أراضيه الفنية مستقبلا فن أفريقيا واستراليا والمكسيك مستمرا فى بحثه فى الماضى الذى أسفر عن معرفته لفن النحت الرومانى وعن شغفه بفن فرنسا القديمة ، كما دل عليه بحث قام به فى الماضى جماعة من المتخصصين • وبعد أن زالت حواجز الزمن والمكان وبعد أن أنكر الغرب فكرة « البربرى » نفسها لم يعد ممكنا أن يكون هذا اللفظ له معنى وصلة فى العصور القديمة وفى سيتيا وسمر ولكننا كثيرا ما ننسى .

وهكذا للمرة الأولى فى التاريخ أو للمرة الوحيدة تنفتح احدى الحضارات ، لجميع الحضارات الأخرى بغير اجبار أو غزو عسكرى • بل على العكس فقد آمن الغرب وهو فى أوج مجده بأن حضارته ليست الحضارة الوحيدة فى العالم ، وأن القيم التى خلقها تنافسها قيم أخرى فى بلاد أخرى ، كما أن السلام لايوجد فى ماضيه أو حاضره ولكنه قد يكون فى جهة أخرى غير محدودة ، لكن هذا التطور الخطير — الذى قد يكون الطابع الوحيد الأكيد لتفوق الغرب — لم يبدأ بانتشار الصور ولكنه بدأ بالسفر وبجمع صور السلالات البشرية من جهة ، ومن جهة أخرى بالملل الذى استشعره الغرب تجاه الفن التقليدى • وقد بلغ هذا التطور أبلغ درجاته بسبب انتشار الكتب المصورة ، فبواسطتها وعن طريقها وجدت فنون الزنوج وتماثيل أصنام جزر السيكلاد وزخارف استراليا طريقها الى حياتنا اليومية وبواسطتها وعن طريقها فقدت الفنون البربرية البعيدة كل حظوة للفن الكلاسيكى .

وهكذا تقودنا الصور الى طريق لمعرفة لا يسوى بين الجميع فحسب بل لمعرفة عالمية ، فالتعصب الوطنى يزول ويمحى أمام ظهور صور العالم الخارجى المطبوعة على الورق اللامع .

***

ومع ذلك فهذه الأقوال المطمئنة لا تمس الا سطحية هذا الوضع الجديد ولا تغوص فى أعماقه • فقد تناولت الظروف التى تنشر فيها الصور ونتائج هذا الانتشار وأهملت التأثير المعنوى وكأن شيئا لايحدث داخل النفس • ولكن الوضع هنا يشبه الى حد كبير القصيدة الشعرية المسموعة عندما حلت محل القصيدة الشعرية المكتوبة فلا يزيد الأمر عن كونه « قراءة » حلت محل الشعور السابق والحس الخاص . ويبقى بعد ذلك أن نتساءل : أتترك مشاهدة الأعمال الفنية فى النفس الأثر الذى يتركه الألبوم ؟ اذن علينا الآن أن نتأمل طبيعة الصور التى حلت محل الأعمال الفنية الأصيلة •

ان وظيفة الصور هى أنها تحل محل غيرها من أعمال الفن : لوحات كانت أو رسوما أو تماثيل • ولذلك فانها تختلف عن الصور الاعلامية فى الغاية والهدف ، اذ أن الصور فى الاعلان ترجع الجمهور الى الشىء نفسه وهو وحده يسر النفس ويبهجها ولا تنتحل لنفسها فائدة هذا الشىء . أما الصورة الفوتوغرافية لأى عمل فنى فعلى العكس خصصت لتخلق وحدها السرور • ومن السهل دون شك أن نعرف الصور الفوتوغرافية بمقارنتها بالأعمال الفنية الأصيلة . ولكن يجب أن لانكرر دائما ، لرغبتنا فى الرجوع دائما الى الثقافة القديمة ، أن الصور تتميز بالتعدد والتكرار وأن الأعمال الأصيلة تتميز بالندرة والوحدانية • ان التمييز بينهما ليس مجردا الى هذه الدرجة •

ان الأعمال الفنية التى صنعت باليد واستعمل فى رسمها المواد الوفيرة واختلفت أبعادها وتنوعت والتى خضعت لما يمكن أن تحدثه حركة اليد أو مواد الرسم قد حلت محلها الصورة الفوتوغرافية ذات الاحجام المحددة والمساحة غير المستقرة . والصور الفوتوغرافية تحترم بالتأكيد النسب التى روعيت فى رسم العمل الفنى الاصيل ، ولكنها لا تحترم مقاييسه ، ذلك أن اللوحات المرسومة أو التماثيل المنحوتة ليست مثل النسب الرياضية التى لاتتغير عندما تتغير الكلمات فى مسائل تندرج تحت قاعدة واحدة • ان اللوحات المرسومة والتماثيل لها اتساع واقعى يعبر عن علاقتين أساسيتين : فانها شكل رسم باليد بحركة تكمن عظمتها ودقتها فى ابعادها الأصلية . لقد نظرنا الى هذا الشكل من عليائنا ولا نعتبر جوليفر ولا ميكروميجاس حكما فى الأعمال الفنية فان العمل الفنى يسجل فى نظرنا بأبعاده الخاصة التى تذكرنا بمجال الحركة التى قام بها الفنان الذى أكمل العمل وبمكاننا الخاص الذى نشغل فى الكون . فاعمال روبنز الفنية المشهورة لا تقدر أهميتها الا اذا اعتبرنا احجامها التى نشعر اذا ما نظرنا اليها بعظمة الايحاء وبقوة الحركة . ولولا الأبعاد الكبيرة للأشكال المرسومة على الأبنية الأثرية لما أخذنا ونحن نشاهد هذه الرسومات العملاقة لكن آلة التصوير سوت بغير عدل بين النقوش على الحائط والمنياتير (الرسوم المتحركة الدقيقة) بين

التمثال والجوهرة • لذا فنحن أمام أى عمل فنى نعقد علاقة واصلة بين حجم العمل الفنى وبين حجمنا الطبيعى •

ويجب ألا نعترض على هذه الملحوظة البسيطة بأن نقول ان حجم اللوحة فى نظرنا يتوقف على المسافة التى تفصلنا عنها ، فنظرنا يعرف جيدا الدور الذى يلعبه بعد الشىء فى تقدير حجمه ، وكذلك امكانية تحركنا أمام المنظر هذه الحرية التى تحرمنا منها الصورة الفوتوغرافية لأنها أحلت النظرة المحدودة المحسوبة للأشياء محل النظرة المتحركة التى لها دخل كبير فى مشاعرنا تجاه اللوحة • فنحن أمام اللوحة نقترب منها ونبتعد عنها ، ننظر اليها نظرة كلية أو نظرة جزئية • هذه الحرية فى الحركة تتلاشى أمام الصور الفوتوغرافية ، فالتصوير الفوتوغرافى يغرسنا أمام فيلم لايعرف المصور عنه الا مستواه الثابت الذى اختاره منظرا شاملا أو منظرا مجزأ فقضى باختياره هذا على حريتنا بل قد يكون أيضا قضى على ذوقنا الجمالى •

***

تطور القدرة على نقل الألوان :

مما لا شك فيه أن شيئا هاما قد تحقق بالتصوير الفوتوغرافى الا وهو اعادة الألوان للرسوم وهو أهم شىء فى الرسم • وقد نكون مخطئين اذا قلنا أن نقل الالوان لم يبلغ بعد حد الجودة والاتقان المنشود • ولكن هذا الأمر يبدو بسيطا فالفنيون لم يقولوا كلمتهم الأخيرة بعد وبدون شك ، ففى السنين القادمة سيصل طبع الألوان الى حد الكمال ، وقد قطعت الأمانة فى نقل الألوان والوفرة فيها شوطا بعيدا فى طريق النجاح • فلنثق اذن فى الآلات ولنؤمن بها •

والفرق بالتأكيد واضح بين الألوان التى تنقلها الآلات الفوتوغرافية الآن وبين ماكانت تنقله من خمسين عاما ، فالألوان الآن أصبحت أكثر غنى وأعظم شفافية • فالتقدم اذن جلى بين بشرط أن نقارن بين الصور الفوتوغرافية بعضها ببعض وألانجعل المقارنة بينها وبين الصورة الأصلية • فاللوحة الواحدة بنقلها الى كتب عدة تتغير ألوانها بل تختلف بين مصورين اثنين ومع ذلك لا ننظر الا الى لون واحد مما يؤدى الى خداعنا • ولقد أعلن أن التليفزيون الملون سيفتح أخيرا للجمهور المحروم من الفن عالم الرسم ، ولكن ننسى أن نقول اننا سنشاهد اللوحات بألوان جديدة لا هى ألوانها الأصلية ولا هى ألوان الصور الفوتوغرافية •

هذه التأكيدات جميعها ليست واضحة ونرتكب نحن نفس الخلط اذا ما قارنا التفاحة فى سلة الفاكهة بالطبيعة الميتة التى رسمها سيزان

لأنه سيكون عملا على غير أساس ٠ ان ألوان الآلة الفوتوغرافية جميعها ليست ألوان الطبيعة ولا ألوان اللوحة المرسومة ، ولا يعنينى هذا طالما أننا نتكلم عن شيء آخر غير الأعمال الفنية : فعندما تعرض الشاشة صورا ذات ألوان كثيرة مركبة وأحيانا غاية فى الروعة من السهولة بمكان أن نعرف ونحس أنهذه الألوان كما تظهر لنا ألوان من صنع المصور وليست من الواقع ، فمشاهد العالم قد يصورها الفنان متحركة أو جامدة حسب الأحوال وحركتها ، وجمودها لايقلل من جمال المشهد بل انه يزيده قوة وقدرة ، أما التصوير فهو شيء آخر ٠ فالرسم عملية فنية وليست مادة أو موضوعا لعملية ما أو للترفيه ، وآلة التصوير لاتستطيع أن تسجل حركة « المخلص » على حائط كنيسة السكستين ولكن ميكل انجلو نجح فى ذلك . انها تنقل الصور متبعة أسلوب المعادلات مدعية أنها ترينا الشيء على طبيعته .

والصورة بالأبيض والأسود لاتعطينا الانطباع الحقيقى عن المشهد الأصيل ، اذ انها لاتدعى نفس الادعاء وهى أكثر تجريدا من الصورة الملونة ٠ ولا يهم فى هذا الأمر أن يتبع نقل مجموعة الألوان الى الأسود والرمادى والأبيض قواعد متفقا عليها.

فاذا حاولنا ان نتذكر دقة الألوان وتجانسها فى الرسم الفينيسى والهولندى ودقة خلط الألوان المختلفة والصبغات لتأكدنا من أن أى آلة فنية لايمكن الا أن « تغدر » بهذه الألوان لانه لا يمكن أن تنقلها كما هى . فضلا عن ذلك فاللون لا يمكن أن يوجد بغير مادة تحمله أو يذوب فيها ٠ والصورة المرسومة بالزيت بسمكه وبقاياه وبالضوء الذى ينبعث من ألوانه ومن أكوام الألوان التى كثيرا ما تعمل فيها السكين فجأة كما هو الحال فى لوحات رامبراند ، لايمكن أن تتساوى بالصورة المرسومة بالجير بسطحها المنبسط ذى الألوان غير المتآلفة أو بالصورة المرسومة بالألوان المائية التى توجد فيها مواضع بيضاء من الورق نفسه . واذا كان فيلار وقد استعمل فى رسم بعض لوحاته الألوان الزيتية فذلك بالطبع لم يكن ليحدث مثل تأثير اللوحات التى رسمها بالجواش . والاختلاف والتنوع فى استعمال الألوان والمواد بين فنان وآخر انما يتوقف على ادراك الفنان للاتحاد بين درجة اللون وبين المادة الملونة نفسها ، ولكل رسم بعد ثابت « مرئى » ولا يهم أن تكون المسافة ضيقة بين مساحتين متقاربتين حتى لايخيل للناظر أنهما تتداخلان ، فشفافية اللوحة المرسومة بالألوان المائية تعطى الاحساس بأن فى عمق الصورة سمكا طفيفا جدا ولكنه على كل حال سمك ٠ ولمسات الفنان وبريق الألوان يخلق لونا له موضوع وكذلك لونا له سمك ، وذلك يتلاشى فى الآلة الفوتوغرافية كما تتلاشى الكسر فى النسيج تحت المكواة الساخنة ٠

ويكفى أن نرجع الى « الفنون الزخرفية » لنعرف الفرق بين الألوان التى تبدو متشابهة ولندرك أن اللون يكون فعلا وحدة مع المادة ٠ ففى السجاد مثلا تختلف

درجات لون الصوف عنها فى الحرير وكذلك فان طلاء الخزف أو الصينى لهما درجات فى الألوان خاصة بهما • لذلك يمكن عقد مقارنة بينها وبين ألوان الباليت أو مايصنعه بعض الرسامين . فمن يتحدث فى الواقع عن المقارنة انما يتحدث عن الاختلاف .

ففى فن التصوير اذن تبدل بالضرورة الألوان ، ولا يهم فى بعض الأحوال أن يكون المصور قد اهتم بأن ينقل الصورة على التيل لأن الأصل مرسوم بنفس الطريقة• وما هذا العمل الا خداع للعين أو بالأخرى خداع للنفس • وعلى وجه الدقة يبدو أن آلة التصوير ترتكب ما ترتكبه اللغة فى « تسمية » الألوان •

***

ونحن نرى أن أوضح مثل للتغير الذى يحدث للصورة المنقولة بآلة التصوير هو اللوحات التى استعمل الفنان فى رسمها المواد غير المتجانسة : ولمدة أربعة قرون تقريبا كلما فكر الفنان فى رسم صورة ما كان يعبر عنها بالألوان الزيتية • هذه الألوان التى لاتستطيع آلة التصوير نقلها بدقة ويسر تفرضه على اللوحة تماسك المادة • ولكن بعد ذلك رأينا جرى وبيكاسو وبراك يلصقون على اللوحات التى يرسمونها علبة تبغ أو قطعة شاش فيبرزون قيمة الشىء الحقيقى لأنه غير متجانس، ولكن آلة التصوير تسوى هذه الفروق الأساسية فهى تقضى على الاختلاف الأصلى فى اللوحة •

***

ونستطيع أن نقول ان النقد الذى يوجه لعالم الفن الجديد انما هو نقد تأثيرى نشعر فيه بانجاز هواة الفن البرجوازيين • وعلى كل فهذا النقد لايقوم على أساس سليم •

لكنه يصل الى مفهوم على درجة كبيرة من الأهمية فما أن يقضى على التخانة وعلى المادة وينقلب نظام الألوان وتزول نسب الابعاد ، حتى لايصبح العمل الفنى « شيئا » بل يدخل فى عالم التجريد وفى عالم المعانى الخالصة • فاذا ما اختلف أثره أيضا عن أثر اللغة فالسبب هو أنه ما زال يدرك فى نفس اللحظة وليس فى تتابع الكلمات • وتدخل تقنية التصوير على عالم الفن اصطلاحات عالمية ومنطقا للحقائق ، شيئا يشبه الاصطلاحات الرياضية الغافلة الأسماء • فالعمل الفنى عندما يكون فريدا قائما بذاته يعتبر شيئا غريبا جدا • أما اذا تعدد وتكاثر عدده فانه يصبح مجرد شارة وعلامة •

ويكفى أن ندرك أنه فيما يتعلق بالذوق الجمالى المعاصر قد اختفت كل قيمة متعلقة بالحركة وبالمهارة وبعملية الخلق المادية نفسها . ويمكن لفوسيون

أن يعـــدد مزايا « حـــركة اليـــد » ولكننا لانجـــد فى ملاحظـــات مالرو اى أشارة الى الحركة عامة ولا الى الاتجاه الحسى فى العمل المجسم . فحوادث الزمن ، كما جاء فى تأملات مالرو حول أبى الهول، تبدو له أهم من العمل نفســه، واصبح الفنان نفسا صافية متصلة بالتاريخ طبعا ولكن بالتاريخ الشامل والتاريخ الجدلى الذى يتصادم فيه المصير والحرية . ولم يعد الأمر أمر المصير اليومى والنضال مع المادة الســـاكنة المعارضة بل أصبح امر اعتراض الضمير الأبدى . وبالطبـــع لم يكن الامر مصـــادفة أن يمدح مالرو التصـــوير الفوتوغرافى .

لذلك فالفنانون لم يقبلوا أن يظلوا متأخرين . فمن أبرز الصفات للفن المعاصر بغير شـــك التقليـــل من قيمة العمل اليـــدوى وســـوف نبحث بغـــير جـــدوى فى أعمال مارسيال ريس أو روشنبرج أو كالدر أو سيزار عن بصمة الأصـــابع الحديثة كما بقيت بعد قرون طويلة فى لوحات فنشى او بوسين .

هل الصورة الفوتوغرافية كافية :

وبعد ذلك يجب أن ندرك أن قراءة الصور التى تحل محل رؤية الأعمال الفنية الأصيلة تقضى على جانب من المعارف الفنية .

وقد كان من أبرز صفات « الخبير الفنى » اذا اعتبرنا الثقافة التقليدية أن يتعرف على القطعة الفنية أى أن يقرر من هو الفنان الذى رسمها . والصور الفوتوغرافية غير كافية لايجاد هذه الصلة . وعلم الصـــور هو فقط احدى الوســـائل لهذه المعرفة ، فاختيار الموضوع وتفسيره بالنسبة لهذا الأمر يعتبران «من هؤلاء الأصدقاء المزيفين» على حد قول أساتذة اللغة ، والتعريف لأى عمل نقل هو أن عمل النقل حتى ان كان النقل نقلا عن صورة ، يحتفظ على الأقل ببعض خطوط من الأصل المنقول عنه . فالشىء الوحيد الذى يملكه الفنان ولا ينازعه فيه أحد هو « الكتابة » أى انسجام وتجانس ووئام الخطوط والألوان تسجلها حركة اليد بعد اعمال الفكر بطريقة لاتنسب الا لشخصية تاريخية واحدة . فالتشابه بين النماذج المادية والتجانس فى التركيب والميل الى مواقف معينة واختيار مجموعة الألوان ووجود بعض الأشياء الاضـــافية المكملة للعمل وحتى توزيع الضوء ، كل هـــذا تستطيع آلة التصـــوير ان تعطى عنه صورة صحيحة الى حد ما ، ذلك كله ليس الا اشارات لاتؤدى الى فروض . والخطوط فقط المباشرة لحركة اليد فى مميزاتها الخاصة هى التى تؤدى الى التحقق من الشىء ، وبغيرها لا يتضح الامر ولا يكون للتعرف على الأعمال الفنية معنى . واستعمال كلمة

« الكتابة » تبين طبيعة هذا العمل العقلى فنتعود التعرف على العمل الفنى الأصيل كشىء شامل محسوس كماتعودنا التعرف على صوت أصبح مالوفالدينا ٠

وهكذا فان العمل الفنى الأصيل بعد أن نقل بالتصوير لم يعد هذا الشىء ذا الطابع الشخصى البحت الذى له شخصيته الكاملة . فننظر للصورة الفوتوغرافية نتأملها فهى لا تحمل ما فى اللوحة المرسومة باليد من المميزات الخاصة ٠ فاذا نظرنا الى التماثيل التى لم تكمل لميكل انجلو والى اللوحات التى رسمها لدهشنا للتشابه الفريد بين الخطوط التى آحدثتها الرئيشة على اللوحة وبين الخطوط التى احدثها المقص فى الرخام . فمن سيلحظ ذلك وهو ينظر الى الصور الفوتوغرافية لهذه الأعمال ؟

وعلى العكس فالتعود على رؤية الصور الفوتوغرافية لا يحدد الا أسلوبا جديدا يختلفعن التثبت من حقيقةالشىء. وهذا الاسلوب الجديد ماهو الامعرفة مالاستطاع الفنان أن ينقله من ميزات الى تلاميذه وأتباعه والناقلين عنه ٠ والألبوم يسوى بين الأعمال الفنية بطريقة تكون أحيانا غير منطقية ، ففى النهاية تكون صورة العمل الفنى المقلد لا تختلف عن صورة العمل الفنى الأصيل ٠ والكتاب المصور يثبت بطريقة لا تقبل النقد حقيقة الشىء بالشرح المرفق للصورة وبالبينات والطريقة الأولية لجمع الصور فى الكتاب . وهى بالطبع جديرة بالثقة . تضمن التحقق من الشىء . والنظر هنا ليس له دور لكن اذا أخطأ المصورون فتنسب الصورة بالطبع الى فنان آخر غير صاحبها دون أمكان تصحيح الوضع .

وفوق ذلك فالاحساس الشخصى الذى يجعلنا نعرف العمل الفنى الأصيل نراه قاصرا على عدد قليل من الناس وذلك لأنه لا يمكن الا نتيجة لخبرة خاصة تمتزج فيها البديهة وسرعة الادراك بالمعرفة ٠ وهذه الدراية لا تتوفر كما قلنا فى الجميع حتى ولا فى عالم الثقافة التقليدية ٠ ولكن الصور الفوتوغرافية لا تقضى فقط على هذه الدراية ولكنها أيضا توجهنا الى عالم آخر يتغير فيه نظام القيم ٠ وهى بغير شك تحترم علم الصور ولكنها « تغدر » بالعمل الفنى الاصيل لانها تقلب نظام القدرات التى يمتلكها العمل الفنى ٠

أما بالنسبة للرسم التقليدى فالآلة الفوتوغرافية تحتفظ بالصفات الجيدة لصناعة الصور واذا نظرنا الى الصورة الجانبية للمراة ذات الأنف اليونانى لبوسين أو للشكل البيضاوى القصير للوجوه فى لوحات بيرو ديلا فرنشسكا وحركة الناس فىرسومات آفيركامب لوجدنا ذلكجليا واضحا . ولكنذلك لايكون الا فخا للمشاعر الجميلة حيث اننا نقول كم نحب أن نجلس تحت هذه الظلال ، أو ما أجمل ابتسامة

هذه الشابة ، أو ما أروع هذا الطفل ، وكم تؤثر فى نفوسنا • وهكذا تخدعنا الصور وتضع أمام أعيننا نظاما دون مبرر للأفضليات ، لأن عظمة الأشكال وتوزيع الأحجام والحركات التى تعبر عنها الخطوط واللمسات على مساحة اللوحة تضيع فى التصوير الفوتوغرافى الذى هو على نمط واحد •

ومما لا شـك فيه أن تعودنا معرفة اللوحات المرسـومة عن طريق الصـور الفوتوغرافية يفسرلنا حظ بعض الفنانين فى أن يحوزوا اعجاب الجميع ، فرشاقة العذارى القوطية ودقة الاحاسيس فى الأعمال « الأولية » ووفرة الورود والوجوه فى لوحات بروجيل عن باقات الزهـور والأعيـاد فيها مميزات حافظت عليها وافردتها الصورة الفوتوغرافية ، تجعل الناظر يفتتن بها ، وبالعكس فالتوتر الداخلى الذى تحدثه لوحات بوسـين والافتتـان الحمـاسى الذى تسـببه الألوان والأشـكال فى لوحـات روبنز تتحـول فى الصـور الفـوتوغرافية الى أوضاع لأشخاص جامدى الحركة لاتمييز بينهم ولا فرق ، والى تشنج والتواءات سيدات بدينات ، ومع ذلك فالشعور بالاعجاب الذى توحى به الصور الفوتوغرافية يتفق مع الشعور بالاعجاب الذى تحدثه اللوحة الأصيلة ، ولكن الذى يسبب هـذا الشعور ليس واحدا فى الحالتين • فان المشاعر الرقيقة التى يعبر عنها شـاردان فى لوحاته وليس مذاق العجينة التى ينحت منها تماثيله معبـرا عن الضـوء والسـكون هى التى تفتن الاوفياء الجـدد للفن .

وهذا صحيح لدرجة أن آلة التصوير بابتكار جديد تظهر فى الفن التجريدى طابعها الزخرفى الخالص وكل شىء يحدث كما لو كانت اللوحات المرسومة قد تحولت الى صور مسطحة بمقاييس مقننة تقدم للخيال جدولا بموضوعات معينة وبترتيب خاص فى الألوان والأشكال فلا يبقى أمامنا الا أن نعيـد استعمال السـجاد والقماش المزخرف على الحـائط .

وهكذا فالصورة الفوتوغرافية بتأثير صفاتهاالخاصة أبدلت شيئا سيئابمعرفة مجموعة العوامل التى توجد هذا التجنيس الداخلى والشخصى الذى كان لأجيـال المحبين للفن الطريق الصحيح للحكم الجمالى ، أبدلت بها الاعتراف بمجمـوعة من الشارات والعلامات تبين عادة العمل الفنى أكثر مما تترجمه •

ما هو العمل الأصيل ؟

ان كلمة « أصل » تثير هنا مشكلة من المشاكل التقليدية فى تاريخ الفن وفى تاريخ علم الجمال • ماهو العمل الفنى الأصيل ؟ وهل من الممكن معرفته كله ؟ ما هى

الصفة الوحيدة المطلقة التى تميزه عن العمل « المقلد » ؟ كل هذه الأسئلة تخطر ببالنا ان تعودنا الرجوع الى الصور ٠

« فالأصالة » فى حد ذاتها فكرة معقدة تستخدم عادة بغير تفكير عميق تطبق على العمل الفنى كشيء . ومعناها أن هذا العمل الفنى صنعته يد فردين ٠ لكن هذه الكلمة لا تاخذ معناها الحقيقى الا بالمقارنة بين العمل الأصيل والعمل المنقول ، بين المنسوخ وبين المقلد ٠

ومما لاشك فيه أن اقتصادنا لولا ما أعطاه للعمل الفنى من قيمة فى الاسواق ومعاملته معاملة الملك لما كانت فكرتنا عن الأصالة كماهى الآن ، فالمدنيات البورجوازية ومدنيات الملكية الخاصة والتراث هى التى صنعت شيئا فشيئا هذه الفكرة ٠ ان العمل الفنى الأصيل « أغلى فى الثمن من العمل غير الأصيل وهو وحده الذى يساوى ثمنه ٠ وتقرر الكلمات التى تتردد فى أحاديث هواة الفن أو التى تكتب بها كتالوجات البيع ذلك فيوصف العمل الفنى بكلمات « نادر » و « ثمين » و « فريد » وتشير الكلمات طبقا للغة التى اتفق عليها الى درجات التأكد من « أصالة » العمل أو غالبا من « عدم التأكد » لأنها تتضمن حكما على ثمن الشيء ٠ ومن هنا اذن ادانة العمل المقلد « المزيف » ادانة معنوية لا ادانة جمالية حيث أن فيه غشا فى السلعة وسلبا لنقود المشترى . أما الصورة التى تعترف بأنها صورة للأعمال الفنية الأصيلة ولا تغش الا فى الشعور الجمالى فهى بريئة من هذا الاثم العظيم ٠

لكن التمييز بين العمل الأصيل والعمل « المزيف » لايحمى فقط من عمليات الاحتيال لسلب النقود لأنه لايمس فقط النواحى المالية بل يمس أيضا المعرفة وربما اللذة وحتى دقة التاريخ . وهى عملية تمس اعماق نفوسنا وما يحيط بها من غموض يبعث القلق فينا ٠ والتوصل الى معرفة « اصالة » العمل الفنى عملية غريبة حقا ٠ فاذا أردنا اثبات نقطة معينة فى التاريخ فعلينا بدراسة الوثائق مسلسلة، وبالاهتمام بتقديم الأدلة وبمقارنة شهادة الشهود ، ومع ذلك فهذه الخطوات الضرورية لاتقلل من قيمة حكمنا على الشيء ، فنحن نقول : هذا العمل قام به فلان فى عام ٠٠ ومع ذلك فهناك ماهو أهم. وعلاوة على ذلك فالتاريخ يمكن ان يكتفى بأن يعرف ان العمل الفنى الرديء يجب أن ينسب الى فنان صغير ، أما التفكير الجمالى فيتطلب أن يكون الحكم على « أصالة » العمل هو حكم بقيمة هذا العمل ، فالعمل الفنى الجيد يجب أن يتصف بما يوحى به من مشاعر بعيدا عن كل تخيل عن الحقائق ٠ ولكن فى الوقت نفسه فان صفة العمل الفنى وهو الشيء الملموس أى الفريد تضعه بالضرورة فى مكانه من التاريخ بحيث يذوب تقدير هذا العمل الفنى ضد أى منطق فى عمليتين عقليتين مختلفتين كل الاختلاف ٠

أكثر من ذلك فان التأمل وحده فى لوحة أو فى تمثال يمكن فى لحظة قصيرة من لحظات الضمير ، أن يعيد الى عقولنا صور الماضى وأن يخلق بيننا وبين التاريخ



اتصـــالا ما . فالأعمـــال الفنيـــة مثل كلمـــات رابليه الخـــالدة تعيش بعـد وقتها لا تموت أبدا ، واذا كنا على استعداد لسماعها دائما تشير الى ما كانت عليه وحتى الى ما كان عليه كاتبها وزمن كاتبها فهى وحـــدها التى تفتح أبواب الماضى الحقيقية • انها لاتقص ولا تعيد البناء ولا تلجأ لا الى وساطة العقل ولا الى وســـاطة اللغـــة . فعـذراء رولان لا تصف العصـــور الوسطى كما يصفها أوجستين تيرى أوبيران . انهـــا تكتفى بأن تكـون ، وأن تظهـــر لأعيننـــا تذكرنا بوجـود شيء أتى من وراء المعـــرفة ، من وراء زمننـــا وما وراء العـــالم الذى نعيش فيه . ومع أن الأعمـــال الفنيـــة تأثرت فى مظهـــرها بفعـــل الزمن وتأثرت أيضا فى أنفسنا بالطريق الجديد الذى يتخذه فكرنا للوصول اليها فقد ظلت شبيهة بما فعله وفكر فيه فى ماض بعيد رجل حق يعمل فى بيئته الخاصة ليقدم حقيقة مازالت حية للآن •

ولما تحولت هذه الأعمال الى صور مطبوعة ليس خلفها الأظهر الورقة التى طبعت عليها الصورة فقدت هذه القدرة • ولو أنها مازالت تستعيد وتحكى التاريخ ، الا أنها لم تعد تفتح النافذة على الماضى وأصبحت نادرة من النوادر ترينا الملابس والاكسسوار وبعضا من أفكار الجماعات . ويمكن أن تحلى بها الكتب المدرسية ، ولكنها لم تعد تستطيع ان تحقق النضرة الوجودية للقاء .

العلاقة الزمنية بين الفن ومشاهديه :

ونحن الآن لاتناقش فقط قضية التاريخ ولكننا نناقش أيضا قضـــية خبرتنا • فالصورة كما تقضى على مقياس العمل الفنى بالمكان فانها أيضا تؤثر فى العلاقة الزمنية التى كانت تقوم بين المشاهد وما يشاهده .

قديما كانت معرفتنا بالعمل الفنى عبارة عن لقاء به يعده أحيانا ويسبقه الأمل والتخيل • وأحيانا كان يحدث فجاة فى منعطف احدى القاعات • وكان أثر هذا اللقاء أقوى فى النفس لأنه غير منتظر ، ثم تتحول المشاعر الى ذكرى تبقى فى النفس حتى يأتى لقاء جديد ، لقاء بنفس العمل الفنى أو لقاء بعمل آخر . ولأنه لقاء بعمل لنفس الفنان أو مرتبط بالعمل الأول بصلة أحيانا غير مفهومة فانه يحيى المشـــاعر الأولى فتزدهر الذاكرة وتثرى وتفتح لعملية الادراك اللاحقة بعدا ثالثا أكثر عمقا • فأى نوع من الألبومات يستطيع أن يحقق لنا أوقات الانتظار هذه وأوقات الفرح وهذا التعاقب مابين الرؤية والذكرى وهذا النسيج الزمنى الموزون المصنوعة منه العلاقة التى تربطنا بالأعمال الفنية ؟ ان سهولة نسخ الصور وطبعها تتحول ضد مستعملى هذه الصور ، فالكتاب المصور يخلق من جديد مدة بقائه ويعطيها لنا بالقراءة نفسها ، ولكن اللوحة

الفنية لاتستطيع ان تحيى المدة الزمنية الا فى نفوسنا طبقا لنظام مشاعرنا المتتابعة ، وبغير هذه الحركة الداخلية فانها تضيع فى عالم النسيان الأدبى .

ولذلك فان الصور تعرض لنا تبعا لاختيار ونظام محددين مقدما ولمرة واحدة . وهذا الاختيار وهذا النظام لا دخل لنا بهما بل قام بهما غيرنا وليس من المؤكد أننا ندرك ذلك . وحقيقة أن المتحف أيضا يختار المجموعة الفنية التى يعرضها ويفرض علينا اختياره ولكن هذه المجموعة بالنسبة للمشاهد لاتنفصل عن نزهته البطيئة خلال غابة من اللوحات المعروضة تجول فيها العين تحفظ وتتردد ثم تعود للنظر .

وعلى العكس فقد تجنب الناس بانتشار الصور الشكوك التى كانت تنتابهم ازاء بعض المعلومات والتردد الذى كان يحدث فى عملية سرعة الادراك والمقارنة والتى كانت تسود بين الناس فى زمن اعتادوا فيه رؤية الأعمال الفنية وتذوقها . وتعرض الصور بالأسماء التى أعطيت لها . وقراءة كتالوجات المتاحف أو المعارض تدل على أن انتساب العمل الفنى أو تاريخه كان نتيجة لأبحاث وأخطاء كثيرة اكتشفت وافتراضات متتابعة . فحكمنا على فنان ما أو لوحة ما أو تمثال ما انما ينبنى شيئا فشيئا على مهل ونظام الأفضليات الذى تضعه ، قد لاتتحقق له دائما صفة الدوام . وقد استطاع الألبوم أن يبدل على مهل الشكوك والمراجعات المتتابعة للمعرفة والذوق بالبيانات المؤكدة الثابتة . والآلة الفوتوغرافية لا يتوقف كرمها وسخاؤها على كثرة الصور التى تعرضها ، بل يظهر كذلك على طريقة التغليف الخاص التى تقــدم بها ، فهى مثل المنتجات الصناعية تقدم ويلصق معها بيان بالنوع وتوضيح لطريقة الاستعمال .

ومما لا شك فيه فان المتحف ليس هذا العالم الذى يشعر فيه الانسان بالحرية الخالصة أو على الأقل ليس كذلك بالنسبة للجميع وليس هذا الفردوس المفقود الذى يشعر فيه الانسان أنه يستطيع أن يحكم على الشىء دون ما اجبار أو اكراه . كيف لايعجب مثلا زائر اللوفر بالجيكوندا ؟ فقد جاء اليها مدفوعا بشهرتها بالتعليم الذى تعلمه من التقاليد الجماعية القوية غير الواضحة ، جاء مأخوذا بحكايتها ، جاء ليراها ويتأملها ، ولكن الصورة المنقولة بقوتها وسلطانها استطاعت أن تثبط من عزمنا فى حكمنا الشخصى على الشىء وتحدد لنا نظاما وضعته مسبقا . فهى تقدس ما تعرضه وتخصصه فيشعر الناس وهم يشاهدون الصور الفوتوغرافية بمشاعر آلية غير منبعثة من النفس وذلك لأن الآلة فرضت المساواة بين مشاعر الناس جميعا فلم يبق شىء يعمل ولا حكم يحكم به . وانتهى بناء معبد الفن بعد أن أخذ مكانه على أرفف المكتبات ، فلنتوجه اليه ونتل له الصلوات فى مكانه الجديد ... لقد بدل الألبوم تأمل العمل الفنى والاعجاب الذى يولد عن لقاء مباشر بتأمل واعجاب صناعيين غير حقيقيين . فما

استحق أن ينشر يجب أن « يكون » جميلا وهذا الشعور بالواجب غـــريب عن التأثر بالجمـــال ·

وأخيرا فان الكتاب يحول الفنانين الى أصنام فأعمال الفنان تدل على تطورات حياته ، ومن محاسن الصدف أن حياة أكثر الفنانين فيها مواقف مثالثة مثل عذاب تكبده الفنان ظلما وعدوانا · أو حياة غريبة تقود الى الجنون ، ومن هنا نرى طريقا جديدا مزدوجا لمعرفة الفن · فمن ناحية ينشر الألبوم انعكاسات للأعمال الفنية ، ومن ناحية اخـرى يحكي لنـا الشريط المرسوم حيـاة الفنـانين . فلم تعـد لوحـات فان جـوخ هى التى نعجب بهـا ولكن نصيبه وقـدره فى الحيـاة . ولوحـة « الرجل » ذى الأذن المقطوعة لاتعتبر لوحة لكن قطعة من الحياة التى نعيشها بالصورة والكلمة متداخلتين ، وهذا لاشباع حاجتنا الى التعويض . ويمكن القول انه آسهل على المرء أن ينفعـل عند سماعه قصة حياة مثيرة اكثر من انفعاله أمام عرض عمـل خلاق . وهكذا نرى ان نظام القيـم قد تأثر مرة أخـرى ، فالفنـانون بغير تاريخ أو الذين نجهـل تاريخ حياتهم مثل بوسين وفان ايك أصبحوا ضـحية الخيـال الروائى :. فالعبقرى النابغ الذى أنكره معاصروه انتقمت له الأجيـال التى جاءت بعده متلهفة الى معرفة تعاسته وبؤسه لا الى معرفة عمله الفنى ·

معرفة جديدة للفن :

وهكذا تولد تحت انظارنا معرفة جديدة للفن · ومن الخطأ بغير شك أن نقارنها بالمعرفة القديمة ، وقد تصبح هذه المعرفة فى القـــريب العاجل عالمية مثل الكتابة ، ولسوف يجد الخبير الجديد بالفن دون جهد وبسهولة فى مكتبتـه انعكاسا لعشر حضارات مختلفة رتبـها ونسقها ورقمها ولقبها له مائة ناشر . وسيكون قد استقبل بفكره صورا تزيد عما كان يشاهده فى المـاضى من لوحات وتحف . أما من حيث الرحالة فمهما كانت درجة ثرائهم أو طول فراغهم فانهم ينظرون الى اعمال بروجل الموجودة فى فينا والصور البوذية المرسومة على الحائط فى أجانتا وتماثيل الأصنام الموجودة فى جزر سيكلاد والأحجار الصلبة الموجودة فى أمريكا القديمة نظرتهم الى أعمال بيكاسو ورونوار دون نظام أو ترتيب ، وقد يذهب هذا الهاوى الى الكنائس والمتاحف يوما لرؤية النماذج الاصلية لما هو موجود فى متحفه الخاص فيتعرف عليها بسرور ، ولن تبلبل افكاره ويعود الى عالمه راضيا مطمئنا ·

ولكن لم يعد الفن الذى استطون فى المساكن الجديدة فى ضواحى المدينة وفى المساكن البورجوازية هو نفس الفن ، فهل من المؤكد أن هذا التطور هدفه المساواة

أيضا ؟ فمازال الجدول اللاشعورى للخصوصيات يمنع الامتيازات • لقد كان امتلاك الصور فى الماضى يعد رفاهية أما الآن وقد انتشرت الصور بواسطة المكتبات فاننا نرى الناس ينقسمون قسمين : قسم يقتنى لوحات الجيب أو الكتب الخداعة والقسم الآخر وهم العلماء وأهل المعرفة والأثرياء يقتنى الأنواع الرقيقة فى الفن وفى المعرفة .

وصحيح أن عدد الزوار يتزايد فى المتاحف والمعارض ولكن هؤلاء الزوار الجدد الذين قد يكونون مدفعين للزيارة بما شاهدوه فى الألبومات أو بما تعلموه عن الفن من الصحف والمجلات لا شىء يدل على أن هدفهم من الزيارة هو نفس هدف الذين كانوا يزورون هذه الأماكن فى الماضى . ولقد لاحظ جيرار بوير أن الجماهير كانت تتسابق الى معرض بيكاسو كما تتسابق لى ضريح لينين فكل ذاهب يقدم القرابين للاله الذى يعبده عادة فى منزله .

وعلى كل فان الأصنام هذه انما هى أجسام ميتة ، والمتاحف قد تكون هذا المكان الذى تنام فيه الأعمال الفنية على حد قول أندريه مالرو ولكن الألبوم هو مقبرة هذه الأعمال ، مقبرة بورجوازية ، مقبرة عائلية كاملة لا تحتاج الى علامة ولكنها مقبرة فحسب •

الفن بين الخلود والزوال :

والفنان فى الماضى لم يكن ليستطيع شيئا ولم يغير الوضع الجديد من أعماله الفنية ، فمنذ عهد النهضة عمل جميع الفنانين تقريبا من أجل الأجيال القادمة ، كانوا يفكرون فى المجد ، أى أنهم كانوا يأملون فى ان يتركوا بعد موتهم أعمالا يتأثر بها اكبر عدد ممكن من المشاهدين ، فالجمهور الذى لم يمكنهم الوصول اليه فى حياتهم بسبب بطء وصعوبة تنقل الأعمال الفنية ، أو بسبب بطء وصعوبة تنقلات المشاهدين أنفسهم من مكان الى آخر بحثوا عنه فى الزمان وفى التاريخ • وهذا الحافز الذى ظل حيا بفضل التقاليد لم يمت بفضل الأدب التاريخى وبسبب تشبث الأكاديميات فى نقله من جيل الى جيل ، هذا الحافز كان يمتزج بالتأكيد مثله مثل حكمة الشجاعة بما كان يشعر به الفنانون من سرور وفرح بسبب عملية الخلق نفسها أو استحسان ورضى العظماء عنهم •

أما اليوم فعلى العكس فقد أصبحت الحاجة للبقاء واستمرار مسألة غير ذات بال بالنسبة للعمل الفنى الخلاق ، فالأعمال الفنية تصنع فى أغلب الأحيان من مواد زائلة

مثل الأسلاك الحديدية والمصابيح الكهربائية والأوراق اللاصقة وهى تتحرك طالما كانت قوى تحركها . وهى تلعب أحيانا وتطيع ما تأمرها به الآلات التى اذا توقفت زال عنها معناها الفنى ويحدث كل شىء وكأن الفنان لايشغل باله بتحقيق الاستمرار والدوام بقدر ما يشغل باله التجديد الدائم للأشكال والآلات والتعبير ٠

وفى الحقيقة لاشىء يدل على أن هذا التغيير كان سببه تكاثر الصور الفوتوغرافية، التى جعلت بغير شك المودات والمدارس المختلفة غير ثابتة ودائما متغيرة ٠ وفى عالم الاقتصاد يزداد الاستهلاك دون توقف بسبب تعدد الصور التى تمثل المنتجات وعرضها فى الصحف وعلى شاشة السينما والتليفزيون ٠ ولابد من التجديد والابتكار بين موسم وآخر ، ومن الغريب الا يكون لصور الأعمال الفنية تأثير مماثل على الناس بالنسبة للفن ، فقد استهلك جيلنا ونشر من الصور أكثر من أى جيل مضى ، وهذه الغزارة لها نفس النتيجة التى نراها فى تكاثر الأوراق المالية : نظام الأنواع والأشكال الذى يتسبب فيه التضخم ٠ وكذلك تعمل كمية الصور المتداولة فى الأسواق وسرعة تداولها على خفض القيم الجمالية ، لذلك تتتابع التجارب والأبحاث للقضاء على الملل الذى يصيب الهواة وعلى انخفاض قيمة الصور ٠ ونرى أسلوبا جديدا لايفتأ يأخذ طريقه فى الحياة حتى يختفى ٠

والحرية التى أعطيت للفنان ليقدم للناس ما يخطر بباله والتى تضمن لكل عمل جديد من أعماله قبولا حسنا ليست الا وجها للضرورة التى يحتمها الموقف ٠ وقد ظلت الأشكال لمدة طويلة تتغير وتتبدل ببطء وبغير وضوح وكان كل جيل حرصا منه على انقاذ المظاهر يخفى الثورة القائمة تحت ستار احترام التقاليد ، فلوحة سماء « بيتا » لأفنيون تمثل أعظم القيم للفن القوطى الذى كان فى سبيله الى النهاية ، لكن الاخلاص والوفاء للماضى يقتصر على اخذ هذه النهاية السعيدة من الفن الصادق . ولقد ظلت حدود كل تطور حتى نهاية القرن الماضى هى الخضوع للمبدأ الشكلى والاستمرار فى نوع من التقنية وهى فن الرسم بالزيت ، ولم يكن الفنانون التأثيريون أنفسهم يريدون الا أن يصلوا الى تقديم صور مباشرة أى أكثر حقيقة للطبيعة ٠ لكن استنفاذ الأشكال الفنية الآن أصبح سريعا والجداول أصبحت ذاخرة بالأنماط المعروفة حتى أنه يجب أن نلجأ فى كل لحظة الى التجديد فى لغة الفن وحتى فى حروف التعبير الفنى الهجائية ٠ فاذا رأينا أن التقنيات الفنية القديمة لاتكفى فسوف نلجأ الى استعمال البوليسترس والمعادن والقماش الرخو والأوراق الملصقة . وسوف تحل الوسائل الميكانيكية محل الصناعة اليدوية وسوف نعيد التكوينات باعادة استعمال صور قديمة موجودة لدينا ، وفوق ذلك فستكون مهمة الصورة الجديدة ان تجعل هذه الأشياء الشاذة تتمشى مع قياس موحد .

وقد يكون فى فن القلق هذا دليل على اضطراب المدنية الحاضرة لكننا لانستطيع أن نمتنع عن التفكير فى ان هذا الفن قد صاحب على الأقل وجود تطور كان من نتيجته انتاج ملايين الصور وهذا أدى الى الاشباع فيما يخص الأشكال • وقد حدث الانشقاق عندما أصبح العمل الفنى لايركن الى الشىء بل تعداه الى الجماهير يتكاثر فيها بانعكاسات لا عدد لها كأنما قد كسرت مرآة فتكاثرت الصور التى كانت وحيدة أصلا الى مالانهاية •

تعدد الأعمال الفنية عبر العصور :

ان اى عصر لم يحرم نفسه بمحض ارادته من وسائل تعدد الأعمال الفنية ، فقد استقبل الناس بحماس كبير النقش والتصوير الفوتوغرافى حتى شغل اللدائن الجلفانية البشعة المنظر • فقد نقلت صور التماثيل الاغريقية التى يرجع نحتها الى قرون ما قبل المسيح ثم التماثيل الاغريقية الأحدث صنعا فى البلاد المحيطة بالبحر المتوسط افكار اليونانيين القديمة التشكيلية • ونشر النقش فى أوروبا اشكال عصر النهضة الايطالية • والتصوير الفوتوغرافى أداة عمل لمؤرخ الفن وأداة تذكرة للهاوى وأحيانا أداة تبعث فيه الخيال • وما يهمنا هنا ليس وجود طرق فن النقل ، ولكن استخدامها وما يتعلق بوجودها من أوهام • ومن الغباء بالطبع أن نطالب بالعودة الى الوراء ، فالحكم بحرق الالبومات لن يكون أقل بشاعة من الحكم بحرق الكتب •

يجب علينا أن نحافظ على قدرتنا على الحكم من واقع حقيقة الأعمال الفنية وليس بناء على أوهام ، فلا يكفى أن نحقر الصور التى تعرض على العرسان الحديثى الزواج لتزيين جدران منازلهم وهى لاتتعدى أن تكون صورا ملونة منقولة بالآلة ، بالرغم من الأوصاف الطموحة والترف الذى يخدع العين والتى تعطى مع هذه الصور كضمان بأنها منقولة على النسيج أو على الخشب • بل يجب أن نعيد القول بان الألبوم لايمكن أن يحل محل الخبرة التى يكتسبها المرء من زيارته للمتاحف والمعارض ولا يمكن أن نبنى به حكما أو تكون عن طريقه فنا للتذوق • فلا معنى لقولنا اننا نحب الفن الهندى أو الفن اليابانى أو اننا نفضل جوجان على الجميع لاننا تصفحنا كتبا فنية ، فاننا فى هذه الحالة مثل الذى يحب أوبرا دون جوان التى الفها موزارت لأنه قرأها فى النوتة الموسيقية ، فالصورة تحرك الخيال وتفتح الذاكرة عند الشخص الذى شاهد من قبل العمل الفنى المنقول عنه الصورة ، أو شاهد عملا فنيا مشابها ، فولد فى نفوسنا نوعا من الاحساس الأصيل لأننا نقرب بين ما نذكره والصورة الحالية فيمتلىء الفراغ الذى تركته حولها الصورة الفوتوغرافية ، ولكن بغير المعرفة الغزيرة والذاكرة الناتجة من زيارات سابقة فان عدسة الآلة الفوتوغرافية

لاتكتشف الا عن عالم من العلامات نصف السحرية ليس له علاقة بحقيقة الأعمال الفنية الأصلية ، كما هو الحال فى القصص الخرافية التى نقصها على المراهقين • وأخيرا فلو كان الأمر يتعلق بالأحلام لكان هذا الأفيون مثله مثل اى مخدر آخر ، ولكن الأمر يتلق بالمشاعر الحقيقية التى يسهل الوصول اليها ، وستبقى دائما الأعمال الفنية وستعيش تحت أنظارنا مادمنا راغبين فى رؤيتها •

وتتوالى الصور الفوتوغرافية وتتتابع بسرعة كبيرة ، فالتصوير الملون ببريقه اللامع الغزير يزيد من اقناعه لنا بأنه يعادل المناظر الحقيقية . والأعمال الفنية ليست وحدها التى أفادت من هذا التقدم فقد نقلت الآلة أيضا مناظر الشواطىء المشمسة وديكور المنازل والأشياء العادية التى نستعملها فى حياتنا اليومية والوجوه المختلفة ، حتى الذكريات والأمانى والآمال تقدمها آلة التصوير أمام أنظارنا ، وحتى التاريخ نكون له صورة معينة عن طريق الصور الفوتوغرافية التى تنشر فى الكتب وتعرض فى السينما والتليفزيون . فيبـدو لنا زمن المخـاطرات فى الغـرب ، والملابس الواسـعة التى كانت سائدة فى عصر الملكة فيكتوريا ، وحتى « السنوات المجنونة » تظهر لنا على الشاشة فى صور منقولة عن الحقيقة أو نسجها الخيال • ان وضوحها فى نهاية الأمر يمزق ضباب الذكريات الخاطئة التى تركته فى نفوسنا القصص والحكايات •

ولكن الأعمال الفنية ليست التاريخ أو أشياء يمكن أن يفيد منها الناس بعد أن يشاهدوا صورها ولا هى مواقع جميلة يمكن السفر اليها والتمتع بها ، والثقافة الوحيدة التى يمكن أن تقدمها لنا ماهى الا ثقافة تخيلية •

ومع ذلك فليس مجديا أن نعترض على انتشار الصور ولا يمكن ادانة واقعة وقعت خاصة وأن هذه الواقعة تحمل بين طياتها أملا وفى نفس الوقت تخفى أوهاما ، ولكن المهم هو أن يظل الناس متعلقين بالأسلوب القديم للمعرفة والا يقبلوا القيم التى يعرفونها عن طريق الصور وحدها ولايقبلوا هذا النظام المصطنع الذى يجعل تقديرنا للفنان مبنيا على أساس جودة الورق المطبوع وأن يرجعوا بقوة وبتواضع الى الأعمال الفنية الأصلية وحدها • ولا يكفى أن يكون هذا دور المتخصصين فى هذا المجال وحدهم لأن هؤلاء يصنعون التاريخ أكثر مما يصـنعون الذوق الفنى ، أو بالأحرى يخلقون الذوق الفنى كانتاج ثانوى لنشاطهم فى صنع التاريخ ، ولكننا نأمل أن يقوم بذلك الهواة بالرغم من أفكارهم الهوجاء ومن جنونهم بل من احلامهم . هذا الموقف القديم الذى جعل بعض الشواذ يولعون بامتلاك الأعمال الفنية الأصيلة ويفضلون الرسم الأصلى للفنان من الدرجة الثانية على صورة منقولة عن العمل الأصلى ، هذه الحاجة الى البحث والجمع – التى تسببت فى شـهرة ماريبيت وجيجو وغيرهما – تغفر للرسامين الذين لم يصلوا الى حد الكمال لأنهم كانوا من أصحاب المجموعات الفنية

ومن اصحاب القدرة على التمييز . كل هذا السلوك الفريد هو الذى يستطيع أن يجعل المجتمع المعاصر يفيق من أحلامه ومن أوهامه .

وفى الحقيقة فان تجميع الأعمال الفنية معناه استثمار الفن ، وامتلاك الأعمال الفنية ماهو الا الدرجة القصوى لحب الأصالة . لكننا نستطيع أن نجمع الذكريات ونستطيع ان نسر النفس ونمتعهـا بزيارة اللوفر والجاليرى ناسيونال والمتاحف التى فى متناولنا . وأهـم ما فى الأمر هو أن نحتفظ بعـلاقة صحيحة وبصلة حقيقيـة للأشياء التى جمعت بينها الى الآن صفات مجسمة ، والتى تكمن فى تركيب أجزائهـا وفى شكلها هذه القدرة العجيبـة على التعبير عن فكرة وعن عمل . والمرآة الوحيدة التى لاتزيف ولا تضعف من المعانى والقيم هى المرآة التى فى داخلنا ، مرآة نفوسنا . وكل صورة تفصل بين العمل الحقيقى وبيننا انما تضر بترتيب أفكارنا . بل تضر بترتيب الأشياء وتسىء اليها .

الكاتب : راءول ارجمـان

- استاذ فى معهد الدراسات السياسية فى جامعةباريس وفى مدرسة الادارة الوطنية .
- تخرج فى مدرسة المعلمين العليا ، وهومن مواليد ١٩٢٠

المترجم : الدكتـور زكريا ابراهيم

- استاذ الفلسفة وعلم الاخلاق بكلية اداب القاهرة .
- له مؤلفات عديدة فى الفلسفة والاخلاق وعلم النفس من أهمها : « مجموعة مشكلات فلسفية » (فى ستة اجزاء) ، وكتاب « كانت او الفلسفة النقدية » ، و «برجسون» ، و « دراسات فى الفلسفة المعاصرة» و « فلسفة الفن فى الفكر المعاصر » و «سيكلوجية الفكاهة والضحك» و « سيكلوجية المرأة» وغير ذلك.
- ترجم : كتاب ديوى « الفن والخبرة » ، وكتـاب «الزمان والأزل» .
- له مقالات ودراسات عديدة فى مجلات ثقافية عربية وأجنبية .

العمل.. والعقاقير.. والثورة

التمرّد على الزمان

بقلم
فريد كالورين
ترجمة
د. عثمان أمين

المقال فى كلمات

يتناول هذا المقال أبوابا ثلاثة : الزمان فى هيلمانه ، والتمرد على الزمان ، والمظاهر الحالية لهذا التمرد . ان الزمان هو اطار الوجود ، وقد قيل قديما ان الوقت من ذهب ، ولكن فى أيامنا هذه ، أيام الأقمار الصناعية والتقدم التكنولوجى الذى يسير بخطى جبارة الى الأمام ، لم تعد هذه المعادلة كافية لوصف أهمية الزمان الذى أصبح فى الحقيقة هو الحياة ذاتها . وقد أصبح الزمان فى المجتمع الحديث الذى يرى أن الصراع مع الطبيعة أمر مقدس ، والذى أصبحت الكفاية هى القيمة الأولى فيه ، أصبح فيصلا حاسما ، اذ ينظر اليه بحق على أنه أحد عناصر الانتاج . وقد بلغ الأمر ببعض المذاهب الفلسفية أن أدرجت المكان تحت الزمان . الزمان هو الذى يحكم اقتصاديات العمل ، بل يحكم ايقاعاته وحركاته ذاتها . أما التمرد على الزمان فيمثله رائده الأول روسو . وليس رفض روسو للزمان الا تمردا على قواه القاهرة ، فهو لا يعترف بشىء خارج نفس الانسان ووجوده ، وبذلك يكون

الانسان مستكفيا بنفسه . ويرى ان العمر يمكن ان يكون موتا طويلا الا فى حالة عودة النفس الى ذاتها . اما التمـرد الحالى على الزمان فاساسه اعادة تفسير الوجود على أساس نفسـانى مما يهدد بانتهاء السيطرة على الحيــاة التى تتلقى التوجيه من الزمان . ومظاهر التمرد الحالية من الكثرة بحيث يصعب تسجيلها وتحليلها ،فهى تمتد من نشوة العوام التى يتيحها لهم الترانزستور الى البهجة السهلة المنـال المتحررة من قيود الزمان ، تلك التى يثيرها القفز بالمظلات الذى أصبح هواية تخلب اللب ، ومن فتنة الاغنية البسيطة تغنى فى المقاهى الى العالم اللازمانى ، عالم الفن المعاصر ، ومن تيار الوعى فى الأدب الى اللامعقولية . ومن المظاهر الفريدة للتمرد على الزمان عدم الاحساس بالزمن الذى اتسم به تمرد شهر مايو ١٩٦٨ فى فرنسا لموقف ثورى لم يتطور الى ثورة لعدم استعداد احد للاستيلاء على السلطة وتحمل المسئولية التى تقترن بها . ومن هذه المظاهر ايضا الانتقال الى وجود لازمانى بتعاطى المخدرات من امثال عقار الهلوسة ، تلك المخدرات التى توسع ادراك الماوراء فى حدود الآماد اللاواعية لوظيفة المخ .

منذ القرون الوسطى المتاخرة شغل الانسان فى الغرب نفسه باحد نشــاطين متعارضين أوبهما معا . كانت حياته نسيجا من شغل الوقت او قتله . وقد تعارفنا على تسمية أولهما العمل وثانيهما الكســل . وعلى اى طريقة من هاتين الطريقتين المتنازعتين او المتكاملتين أخلاقيا شكل الغربى حياته ، فان تأكيدا واحدا يجمع بين الطرفين المتباعدين : ذلك هو تأكيده ، ان صراحة وان ضمنا ، ان الزمان هو اطار الوجود . ومقصــدى من هذا البحث ان أبين أن الأمر لم يعــد كذلك . وســنورد البرهان على أن أبعاد الوجود «المقولات» ، وهى أوفر معنى ودلالة من الزمان ، تتنافس الآن لزحزحته من مكانه ، بوصفه القالب أو الصورة التى تزخر فيها الحياة بالمعنى . فهذه التيارات الفكرية التى تزداد وضوحا ، ينبغى حملها بالضرورة على انها بديلة ومعارضة لتلك التى كان للزمان الصدارة فيها ، لانها تعطى الأولوية لآفاق تقلل كثيرا من اهمية الزمان ، لتطلع يرمى الى استبعاده تماما ، بالقدر الذى يكون فيه ذلك ممكنا فى عالم مازال محكوما الى حد كبير بشروق الشمس وغروبها وكسر السنين والأيام وما الى ذلك . وان الزمان قد اكتسب سيادته فى عصر يتميز بغزو الانسان القاهر

للطبيعة أو الانطلاق بنفسه الى العالم الخارجى . ويتم هذا الانطلاق اساسا عن طريق العقل والعمل .

ويمكن ان يفهم احتجاب ظل الزمان فى مواطن كثيرة حيثما صار تمثل العالم الخارجى الموضوعى ورده الى « الجوانى » فى الانسان أهم ما يشغل باله .

وسنحاول فى خطوات ثلاث ان نلقى نظرة على : (١) خصائص العصر الذى كان الوجود فيه محددا بالزمان . (٢) التمرد على الزمان وظروفه كما تتمثل فى كتابات جان جاك روسو . (٣) بعض علامات التزايد الحالى لهذا الاتجاه فى الغرب وبعبارة ادق فى المجتمعات التقنية .

١ ـ الزمان فى هيلماته : اطار الوجود :

من المحظة التى أعلن فيها للعالم الأغريقى الرومانى أن قد حان طريق الخلاص (رسالة الى أهل كرونثيا أصحاح ٦ : آية ٢) كان مقدرا للزمان ان تتعاظم اهميته ولكنه كان صعودا وئيدا مشدودا طويلا . وحتى أجراس الاديرة المضبوطة ميكانيكيا او الساعات الفلكية بتقاويمها الدقيقة لمواقيت الأعياد الدينية المتناوبة وباشكالها المهتزة المتوثبة التى كانت تعيد الى الأذهان دورة الحياة ، حتى هذه وتلك لم تسجل انتصارها وان الساعات المنصرمة والأيام صارت مجرد أجنحة ضرورية للتحليق الى مرحلة « الماوراء » ان وضع الزمان فى مكانه للحياة هو ما كان من حتمية الاستعانة به فى مطلع عصرنا فى خدمة ذلك النشاط المتزايد الانتاج المعروف بالرأسمالية فى صورها الصناعية والتجارية . وفى مستهل هذه العملية زادت اهمية الزمان ووضعت عليه القيود فى آن واحد . وكان ذلك عن طريق الجزاء الدينى الأخروى الذى كان مصلتا على عملية الانتاج مؤولة على أنها من أفعال الله . وقد قال باكستر البيوريتانى الكبير :

> « قدر الوقت تقديرا عاليا وكن كل يوم احرص على الا تضيع من وقتك شيئا احرص منك على ألا تضيع شيئا من ذهبك وفضتك . واذا كانت التسلية العابثة والملبس والولائم وحديث الكسالى والصحبة غير المقيدة والنوم من شأن احدها الاغراء باختلاس شىء من وقتك ، فأن عليك اذن أن تشدد من يقظتك » . (١)

---

(١) المرشد المسيحى ج ص ٧٩ اقتباس ويبرفى الاخلاق البروتستانتينية وروح الراسمالية نيويورك ١٩٥٨ ، ص ٢٦١ .

ولكن لم يطل الأمر حتى صار « الوقت من ذهب » كما قال بنجامين فرانكلين .
وفي يومنا هذا لم تعد حتى المعادلة بذلك المعيـــار المستقل للقيمة العالمية كافية لبيان كيف أن الزمان قد صار في سباق التسليح والأقمار الصناعية ، هو هو البقاء ، الحياة ذاتها (٢) .

والسبب في صدارة الزمان ليس من العسير الاهتداء اليه وان كنا سنلاحظ أن الظاهرة من أحدث الظاهرات التاريخية مصـــدرا .

ان المجتمع الحديث متصور ومنظم على اساس انه جماعة عمل . وقـد عبر « ايريك فئيل » عن ذلك في وضوح بقوله :

ان المجتمع الحديث يفهم وينظم نفسه بهدف الصراع التقـدمى مع الطبيعة الخارجية (٣) .. لأن المجتمع الحديث يرى ان الصراع مع الطبيعة امر مقدس وانه هو القيمة التىتشكل أساس انعكاسه والتىبفضلها يوجه نفسه (٤) وتصبح الكفاية هى القيمة الأولى في هذا المجتمع . وفي عبارة أخرى على حد قول « سومبارت » فأن العقلانية الاقتصادية هي أبرز السمات في الحياة الاقتصادية الحديثة ككل (٥). ويعنى هذا أن العمالة والطاقات الأخرى تكون منظمة ومبذولة في أكثر الطـرق الممكنة فاعلية لانتاج السلع والخدمات المادية . وهكذا يصير الزمان بصورة مطلقة فيصلا حاسما ، حيث ينظر اليه بحق على أنه أحد عناصر الانتاج . ولقد اكتشف أنه أحد الأبعاد التى تمارس في اطارها الطاقة الانتاجية ، وهكذا فانه يتسم بأهمية حيوية . أن دراسات « ف.و. تايلور » عن الزمان والحركة مرادفة لجهود التعقيل الصناعى التى قام بها منظمو العمل بغية تنظيم الانتاج بمنطق ثابت يكون فيه الزمان المترى مع الحجم والتنظيم هى العناصر الأساسية . ان التايلورية كما تطلق أحيانا على تعقيل نظام العمل بلغ بهـــا الأمر الى ادراج المكان تحت الزمان .

ويقول : «دانيـــل بيـــل» في تعليقه على عبادة الكفاية في أمريكا : « ان الزمان يحكم اقتصاديات العمل بل يحكم ايقاعاته وحركاته نفسها (٥) » .

---

(٢) من امتع ماكتب في وصف، شمول وآثار سيطرة الزمان في المجتمع الصناعى المتقدم والمعـــاصر مانجده عند ريمون ميلكا « المواظبة » بحث في سيكلوجية الانسان الحديث في ديوجين ، العدد رقم ٦٥ ربيع ١٩٦٩.

(٣) فايل : الفلسفة السياسية ـ باريس فران ١٩٦٥ ص ٦١ .

(٤) نفس المرجع ص ٦٧ .

(٥) فيبر ص ٧٥ .

(٦) دانييل بيل : نهاية الايديولوجيه . نيويورك ١٩٦٥ ص ٢٢١ .

وأود أن أعود الى « اريك فيل » لملاحظة توضح تمام الايضاح النتيجة البارزة المتضمنة التى يجب استخلاصها من تتويج الزمان بأعتباره هو بعد الوجود . ومع أنه نال الحظوة فى خدمة « الما وراء » والأبدى بتنظيم اعمال العبادات الانسانية اولا ، ثم بأستغلاله النظام المخلوق زيادة فى تمجيد الله ومخلوقاته ، الا أن الزمان ما كاد يتربع على عرشه ، وهو ما يتفق مع طبيعته ، حتى وضع حدا لعلاقاتنا بأى عالم آخر من عوالم الواقع . ويعلق « فيل » بقوله :

« ان المجتمع الحديث يعرف نفسه على غرار كافة مجتمعات التاريخ بمـا يسميه المقدس بالمعنى الصورى لهذا اللفظ ، بذلك الأمر الذى لا يناقش ولكنه أقرب الى أن يشكل أساس كل مناقشة . وهذه القيمة المقدسة فى نظر المجتمع الحديث هى النتيجة التى يمكن قياسها ، وهى حصيلة الصراع مع الطبيعة ومنها يشتق مبـدأ اسقاط كل قيمة مقدسة تجاوز المجتمع وعمله . وان اتحاد الأفراد وتعاطفهم فى قيم ليست موضوعة على مستوى الطبيعة ولا مستوى الصراع مع الطبيعة وفى ذاتية كلية وشخصية ، سواء كانت هى الطبيعة أو الله أو المدينة أو الملك لأمر ينكره القـانون أو على الأصح يعتبره عديم الجدوى ومناقضا للقمية الاجتماعية (٧) » .

وبالطبع فأن الزمان لم يكن يتسنى له أن يفرض نفســه بهذه الصـورة على الانسان الغربى ما لم يكن الانسان الأوربى قد تهيأ لتعريف نفسه فى اطار الزمان . ولقد صاغ هيجل هذا التطابق فى صورة لا يعلى عليها بقوله « يحصل التمييز أحيانا بين أعمال الانســان وبين ما هو عليه فى وجوده الداخلى العميق ، وهـذا التمييز يعوزه الصدق من وجهة النظر التاريخية : فان الانسان ليس سوى مجموعات اعماله . وهذا المفهوم للانسان على أنه نشــاط منبثق عن الانفصال الذى أحـدثه المجتمع الصناعى الحديث بين الانسان والطبيعة . واذ لم يعد الانسان قادرا على أن يجد نفسـه جزءا من الطبيعة فانه قـد حقق وعيه الجديد لذاته فى علاقة سـلبية جعلت من العالم الخارجى موضوعا غريبا عليه يتعين تمثله عن طريق تدميره وتحويله . وعلى حـد قول هيجل : .

« بعد خلق الطبيعة ظهر الانسان وعارض العالم الطبيعى وهو الكائن الذى رفع نفســه الى كون ثان . ويضم ضميرنا العام فكرة مملكتين : مملكة الطبيعة ومملكة الروح . وتشمل مملكة الروح كل شىء ينتجه الانسان . ويمكن تصور عالم الله على عدة صور . ولكن الأمر دائما أمر عالم روحى يجب أن يتحقق فى الانسان وأن يأخذ شكله فى الوجود (٨) » .

---

(٧) فيل : المرجــع الســابق ص ٦٦ .

(٨) المرجــع الســـابق ص ٧١ .

ان معادلة الانسان بالزمان ومعادلة الزمان بالحقيقة القصوى المنبسطة فى التاريخ يمكن أن ترى بوضوح فى الملاحظة التالية وهى شاهد أكبر بكثير على واقعية هيجل من المثالية التى اتهم بها منذ هجمات فوبرباخ وماركس . وان التاريخ العالمى هو تعبير عن العملية المطلقة للروح فى اسمى أشكالها : التقدم التدريجى حتى تبلغ الى حقيقتها وتصير واعية لذاتها (٩) وليس هناك ما هو أوضح فى التعبير عن ذلك مما كتبه حين قال : « يظهر الزمان اذ ذاك وكأنه القدر المحتوم للروح التى لم تكتمل بعد فى ذاتها (١٠) . وهى الضرورة من خلال العمل والصراع ضرورة اتمام ما قد كان أول الأمر جوانيا فحسب والكشف عنه » .

وبودى أن ابرز أهمية تصور هيجل بالاحالة مرة اخرى الى تفريعاته كما أوضحها أحد مشاهير تلاميذه وشراح فلسفته وهو « كوستاس يابابوانو » :

« حتى ذلك الحين كان الزمان يعتبر العدو الأكبر والمأساوى على وجه الاطلاق والرمز القاسى للنقص والخطأ والبوار . وهكذا دأب الناس على أن يضربوا سياجا حول آلهتهم بوضعها فى أبدية لا تشوبها شائبة ليهيئوا لأنفسهم نقطة ارتكاز ثابتة يتشبثون بها وتكون جنة لهم من قبضة الزمان الشاملة ، فكان للأقدمين كونهم الذى لايعروه الفساد وللمحدثين عقلهم بحقائقه الأبدية . وكانت كل جهود هيجل ترمى الى استخدام استعارة باسكال الرامية الى اغراء العقل باسكان عدوه فى ذاته . وعلى غرار فارس ديور فان المطلق عليه أن يؤدى الى الطريق بين الشيطان والموت (١١) .

٢ ـ التمرد على الزمان :

قبل أن يصوغ هيجل وصفه لتاليه التاريخ الانسانى بأكثر من ثلاثين عاما فى عبارات انما تحقق صدقها اليوم فحسب فانثورة حديثة على الزمان كان ينادى

---

(٩) شعوب التاريخ الصفات الخاصة لاخلاقهم الاجتماعية دستورهم ، فنهم ، ودينهم ، وعلمهم تمثل صورة هذا التقدم التدريجى ، وانجاز هذه الخطوات هو الرغبة التى لاتنتهى والدفع الذى لايقاوم لروح الصالح ، لان بيانها وانجازها هو ذات مفهومة وان مبادىء روح الشعوب فى السلسلة الضرورية لتعاقبها ليست شيئا فى حد ذاتها ، ولكن لحظات الروح الكونى الواحد ، وبفضلها يرتفع التاريخ الى شمول شفاف لذاتها وتحقيق النتيجة . نفس المرجع ص ٩٧ ـ ١٠٨ .

انظر ايضا على سبيل المثال هيجل . **دروس فى فلسفة التاريخ** باريس ص ٣٣٧ ان العالم المعاصر هو الامبراطورية الروحية فى وجودها امبراطورية الارادة التى تهب نفسها الوجودية والفينوموتولوجيا ص ٣٠٥ الصورة التى يكون عليها الجوهر فى الوعى .

(١٠) **فيتوموتولوجيا** م ص ٣٠٥ .

(١١) التاريخ والقبودوسيا فى **ديوجين** العدد رقم ٥٣ ربيع ١٩٦٦ ص ٤٩ ـ ٥٠

بهـا جان جاك روسو (١٧٧١ ــ ١٧٧٨) بصوته المتهافت . وظاهرة التمرد على الزمان التى كانت قائمة حينئذ بمثابة تيار معارض لتشكيل الحياة الحديثة تشكيلا زمانيا والعاصفة والاندفاع والثورة وحركات القمع من مختلف الانواع هذه الظاهرة قد اتسعت الآن اتساعا لايمكننا معه أن نوافق على قول بون هوفر بأن الجـوانية والضمير قد بلغا نهاية الشوط (١٢) وأمل أن يكون الفحص الموجز لاحتجاج روسـو مفيدا فى بيـان أغراضـنا .

وحين اتحدث عن تمرد روسو واحتجاجه فى هذا الصدد فاننى اشير الى آخر كتاباته « سوانح متجول فى خلوته » . وانى استعمل هذين النعتين لوصف مقـال روسو فى عرض دعوى لم يقطع بها بعد النقد الأدبى فى معالجته لهذه «السوانح» ولم تختبر فى ضوء معرفة وثيقة بحياة روسـو ومواد دراستها . ومع ذلك فانى اعرضها فى العبارة الموجزة التالية : معظم الشراح يفهمون « السوانح » على انهـا تشكيلة من التجارب الجـوانية وضعت بغير ترتيب ولا نظام وتسـجيل شخصى للتغييرات المتعاقبة التى طرأت على نفسه (١٣) . اما محاولة وضع ترجمة ذاتية منهجية ومرتبة ترتيبا زمنيا فقد دونها روسـو فى اعترافاته ومحاوراته التى اتمها عامى ١٧٧٠ و ١٧٧٦ على التوالى ، ومع ذلك فقبل وفاته بعامين ، وقد كانت حياته قـد سجلت وفق الترتيب الزمنى وكان يشعر بأنه وحيد على الأرض ، فان روسو وجد انه مازال عليـه أن يبحث متسـائلا ماعساى أن أكون انا نفسى منفصـلا عن بقية الناس وعن كل شىء فى هذه الحال من العزلة ؟ وما يأتى بعد ذلك فى « السـوانح » انما هو فى رأيى اجابة تصاعدية صيغت فى عناية عن هذا السؤال . والذى يهمنـا ملاحظته هو أن النظام لم يحدد ولايمكن التعرف عليه بمنطق الزمان . والأولى أن يقال ان هذا النظام قد حددته صدارة حقيقية أخرى جوانية، ربما استطعنا أن نسميها وجودية : فالزمان هنا لم يتجاهل فحسب بل انه انتهك ونبذ .

ان تعاقب اللحظات أو التجارب التى يسجلها روسـو فى الاطار الموجـز « للجولات » العشر يتحرك فى سلسلة علاقات وثيقة جوانية ، ويبدو انها تتقـدم من الميلاد الذى حدث فى أكتوبر ١٧٧٦ (كان عمر روسو اذ ذاك ٦٤ عاما) من خلال وعيه لنفسه واستغراقه فى الطبيعة واحتوائه لها ، ومن خلال علاقته بالآخرين والأطفال ، وأخيرا من خلال علاقته مع «مدام دى فارانس» . ولنلاحظ أيضا أن هذه الخواطر أو الذكريات قد وضعت تحت شارة « السوانح» أى حالة من الانفصـال

---

(١٢) كتب رجل اللاهوت البروتستانتى من السجن عام ١٩٤٤ يقـول ان « زمان الجوانية والضمير قد انقضى » رسائل واوراق من السجن لونتنا ص ٩١ .

(١٣) انظر على سبيل المثال روبرت اوميت : « اسهام فى الدراسـة النفسية للسوانح » حوليات جان جاك روسـو .

الذهني و النفساني بعيدا جدا عن المنطق المعتـاد ، منطق العقل . ومن المفيـد أن نقتبس هنا عبارات قليلة يصف فيها الأحوال الدالة من احوال نفسه فى الجولة الثانية ، التى يصور فيها حادثة سقوطه من أثر اصطدامه بكلب كبير . وقد وصف رجوعه الى وعيـه على النحـو التـالى :

« كان الليل يزحف فى أخرياته . راقبت السماء وعديدا من النجوم وبعض الخضرة من حولى . هذا الاحساس لحظة ابتهاج . وكان وعيى لنفسى على هـذا النحو وحده . لقد حملت فى تلك اللحظة ألم الحياة ، وبدا لى أنى ملأت بكيانى الخفيف جميع ما رأيت من أشـياء (١٤) » .

الجـولة الخامسـة :

اذا كانت هناك حالة تجد النفس فيها أساسا متينا ترتاح اليـه تمام الارتياح وترسم فيها كامل وجودها دون أن تتذكر الماضى أو تدلف الى المستقبل ، حـالة لايكون الزمان عندها شيئا ، حالة يدوم الحاضر فيها الى الأبد ودون أن يظهر ديمومته ودون أى أثر للتعاقب ، ودون أى شعور آخر من حرمان أو ابتهاج ، من لذة أو ألم ، من رغبة أو رهبة غير رغبتنا الوحيـدة فى الوجود ، هـذا الشـعور ربما أخـذ بمجامعها (١٥) .

واذا كان الأمر هنا متصلا بما بينه وبين الطبيعة ونفسه من علاقة سلبية هينة ، فانه يعالج فى الجولة السابعة العلاقة الايجابية بالعالم الطبيعى . فهل يمكن القـول بأنه يشير هنا مسألة العمل فى ضوء التصنيع البازغ والعقلانية السائدة فى زمانه ؟ أن نشاط التزجية المجرد من المنفعة فى جمع النبات هو وحده الذى يوائم روح التأمل الحساسة والانسان المتكامل ، اذ يستغرق فى هذا التأمل وحده .

« تستولى على حواسه سانحة ناعمة وعميقة ويفقد نفسه فى نشوة لذيذة فى طيات عظمة هذا الكون الجميل ، شاعرا بأن نفسه قد اتحدت به . حينئذ تفلت منه جميع الأشياء الجزئية فما يرى ولا يشعر الا بالكل (١٦) » .

وحتى جمع النبات عندما يعمل لأسباب علمية عقلية أو لأغراض مادية نفعيـة لكشف الأعشاب الطبية فانه يبعد الانسان عن الاتحاد بالعالم الطبيعى . وجمـع

---

(١٤) المرجـع السـابق ص ١٠٠٥

(١٥) المرجـع السـابق ص ١٠٤٧ .

(١٦) المرجـع السـابق ص ١٠٦٣ .

الصخور هو علة لابتعاد مماثل يتطلب الصناعات والجهود والعمل فى عون تعاسة الانسان . وشبيه ذلك دراسة حياة الحيوان ، فانها تقوم على أساس منشآت باهظة التكاليف وفى النهاية على استغلال حياة الحيوان التى يتعين تدميرها لفحصها (١٧) .

وفى الجولة الثامنة يصف لنا روسو كيف وجد سلام الروح فى حال صار فيها هو الذى كان يشعر أنه جدير بالحب والاحترام غرضا للسخرية مخيفا فى نظر جيل معاصريه بأجمعه (١٨) :

« صحيح اننى حين آوى الى نفسى وحدها من دون الناس ، فاننى اعيش على قوت نفسى ، ولكن هذا القوت لاينفد ، وأنا مستكف بنفسى »(١٩) .

ومكمن السر فى الدخول فى علاقة مع النفس التى حل فيها تقدير الذات محل الكبرياء وحب النفس . وفى فقرة تسترعى الانتباه يشير روسو الى كبريائه باستعمال ضمير الغائب ، يصف عملية التجوين (رد البرانى الى الجوانى) من خلال ترجمة الكبرياء الى تقدير الذات .

« فى عكوفى على نفسى وقطع العلاقات الخارجية التى تجعل الكبرياء ملحة اشد الالحاح ، وبرفض المقارنات والمفاضلات ، صار « هو » قانعا بأن اكون أنا رحيما بنفسى بالقدر المعقول . واذ صرت حينذاك الحب لنفسى (بدلا من حب النفس) فانه قد اطمأن لنظام الأشياء الطبيعى وحررنى من نير الرأى » (٢٠) .

وفى الجولة التاسعة ، المتنافرة فى ظاهرها ، اذ يستعيد روسو ذكرى عدد من التصرفات السعيدة مع الأطفال وان كانت ناقصة وغير طبيعية (٢١) ، يبدو مرة أخرى أن القصد من ذلك هو بيان طائفة من العلاقات كانت جوهرية لحياته ، ولكن كان عليه التسليم فى شأنها ببعض الضعف والثغرات .

ولقد امتد الاحساس بالافتقار الذى عاناه يوما ما فى طفولته ، وهو يتصلم ، واخفاقه المشهور فى العلاقات الانسانية ، امتد أيضا الى الجنس الآخر ، وهذا هو السبب فى أن دهشتنا ليست قليلة ، ولكنا رغم ذلك قادرون على أن نجد مغزى

---

(١٧) المرجع السابق ص ١٠٦٧ — ٨ .

(١٨) المرجع السابق ص ١٠٧٦ .

(١٩) المرجع السابق ص ١٠٧٥ .

(٢٠) المرجع السابق ص ١٠٧٩ .

(٢١) لاحظ الاشارة الى دور النقود فى كل حالة تقريبا من حالات علاقاته بالاطفال ، والعلاقة علاقة شراء وان تكن فى درجة مخففة ص ١٠٩٩ .

ما في الجولة العاشرة المفترض انها لم تتم . وفي وصف روسو لما كان بينه وبين مدام دي فارانس من علاقة قصيرة لم تكن كلها شاعرية ، كتب يقول :

« مامن يوم من أيام حياتي الا وتذكرت فيه بالابتهاج والحنان ذلك الوقت الفريد القصير من حياتي حين كنت انا نفسي خالصا كل الخلوص من الزيف والعوائق ، وحينئذ أستطيع أن أقول بحق انني قدحييت . وأكاد أقول مثل ما قاله الحاكم الروماني الذي عندما ذهبت عنه الحظوة في عهد فسباسيان ولي منزويا ليختتم أيامه في الريف : « لقد قضيت على ظهر الأرض ستين سنة وازدادت عشرا ، ولكنني لم أعش منها الا سبعا (٢٢) » .

وكل قصدي من هذا العرض المسهب ، وغير التام مع ذلك ، انما هو اثبات أن روسو في « سوانحه » يضع الوجود في اطار لا يحسب فيه للترتيب الزمني حسابا . انه وجود مؤسس على علاقات غير مرسومة بين النفس وذاتها ، وبين النفس والطبيعة ، وبين النفس والطفولة العفوية البريئة ، وبينها وبين رفيق القلب . وروسو عصري بمعنى أن رفضه للزمان ليس أمر تحليق في عالم « المأوراء » الخالد ، ولكنه تمرد على قوى الزمان القاهرة في حدود «هذه» الحياة وامكانياتها . ان الوجود داخل في ميدان الزمان (٢٣) ، ولكن أن يحيا الانسان داخل في انعدام الزمان . أن العمر يمكن أن يكون موتا طويلا الى أن تخلق الحياة بفعل من أفعال الجوانية . الا وهو عودة النفس الى ذاتها » (٢٤) .

« ان مصدر السعادة الحقة كامن فينا » (٢٥) . وحتى العلاقات الحيوية مع الطبيعة الخارجية ومع الأشخاص ماهي الا معابر على طريق عودة لامفر منها الى النفس الجوانية . وان ابتهاج القلب الذي يتشوق الى العثور عليه في عيني الطفل السعيد ما هو الا انعكاس لما في نفسه هو (٢٦) . وحين يصف روسو النشوة التي يستشعرها الانسان عند مشاهدة المناظر الطبيعية لجزيرة سانت بيير ، يتساءل عما عساه أن يكون مصدر هذا الابتهاج ؟

---

(٢٢) نفس المرجع ص ١٠٩٩ .

(٢٣) كتب مارسيل ديمون في تعليقه على ذكر الزمان المقتبس ماورد في الجولة الخامسة « لايبدو اننا قد جاوزنا الزمان ، ولكن هنالك بالعكس نزول في وجود تخللي عميق الى حد الدخول في صورة متجانسة وغير متفاضلة من الزمان « نفس المرجع ص ١٧٩٩ » ويقتبس ريمسون من جان قال « لوحة الفلسفة الفرنسية » باريس ١٩٤٦ ص ٩٤ — ٩٥ . ان نوعا من التصرف الوجودي قد تأسس » .

(٢٤) الجولة الثانية ص ١٠٠٤ لقد خلقت لاحيا واموت دون ان اكون قد حييت .

(٢٥) الجولة الثانية ص ١٠٠٣ .

(٢٦) الجولة التاسعة ص ١٠٨٩ السعادة في الوجود معي أو الابتهاج يشتريه هو بالنقود .

« لاشيء خارج النفس ، ولاشيء غير نفس الانسان ووجوده ، ويكون الانسان مستكفيا بنفسه ، شأنه فى ذلك شأن الله ، مادامت هذه الحال » .

والسؤال الهام فى سياق كلامنا هو لماذا عمد روسو فى اقامته بنيان الوجود طبقا لمنطق الجوانية الى الوقوف معارضا نظام الزمان ؟ الجواب يتعين علينا أن نجد بعضه فى روح مجتمع القرن الثامن عشر الأوربى ، وشطره الآخر فى تحليل روسو لذلك العالم . لقد كان ذلك القرن كما يتبين بوضوح من جميع مظاهره، بداية «درامية رائعة» للمطلقية الانسانية . ان « الارادة المطلقة النازعة الى الصورة تلقت تعبيرا عنها من كل وجه، من الحدائق المنسقة تنسيقا هندسيا كاملا ، الى التصنيع الناهض ، ومن برمجة التربية الى مولد الجغرافية التاريخية والاقتصاد السياسى . وتكون الديناميكية التى كانت تحفز انسان القرن الثامن عشر فى أن تنقل الى الخارج الصورة النبيلة للروح ، باخضاع كل شيء حول الانسان لنظام عقلى وتصيير الكمال مرئيا . والزمان ، من وجهة النظر هذه ، لم يكن جبرية مفروضة من الخارج من قبل نظام للوجود ثابت ومتعال ، ولكن الزمان كان ضميمة الى عقل الانسان . وكان الزمان هو تنظيم النشاط على هدى العقل . واذن فقد كان العقل فى خدمة البرانية الفعالة . ويقول روسو فى مقاله عن أصل عدم المساواة بين الناس أن انسان العصر تعرف هويته بنشاطه المحموم الذى تنظمه قاعدة الزمان .

« أن المواطن ، فى سعيه المتواصل ، يعرق ويعنى نفسه ولا يكف عن القلق ، منطلقا الى عمل أشياء هى أشد عناء . وهو يسوق نفسه الى الموت ، بل انه يعدو مسرعا الى حتفه ليتمكن من الاستمتاع بالحياة ، فان لم يتهيأ له ذلك انخلع عن الحياة لنيل البقاء (٢٨) » .

. ربما يتضح الأمر الآن ، فالفعل متخذا صورة العمل ، هو وسيلة التحقق فى العالم الخارجى ، والانسان الحديث ، مدفوعا بشهوة القوة والسمعة وعلو الشأن ، يتسم فوق كل شيء بسمة الاغتراب .

« يحيا الانسان البدائى داخل نفسه . أما الانسان فى الجماعة ، وهو دائما خارج نفسه ، فلا يعرف كيف يحيا الا فى رؤوس الآخرين حتى ليمكن القول بأنه انما يعتمد على رأيهم فى شعوره بوجوده (٢٩) » .

---

(٢٨) جان جاك روسو « العقد الاجتماعى » .. «مقال عن أصل عدم المساواة بين الناس» الخ باريس جارنييه ١٩٦٢ ص ٩١ .

(٢٩) نفس المرجع ص ٩٢ .

لماذا ينهض روســو معارضا ذلك المركب من الزمان والعمــل والبرانى الذى هو « روح المجتمع » ؟ لأن ذلك المركب هو أساس ذلك الخليط من الناس المتصنعين ومن الأهواء الزائفة (٣٠) ، اى المجتمع الذى ينزل له الانسان مضطرا عن وجوده ، والذىبدوره يدمرحريته. ولانسانالذى ولدليكونحرا يصير بجعله وجودهبرانيامكبلا بالاغلال في كل مكان (٣١) فذلك الذى فكر فى أن يبسط ذاته ليمتد الى السيادة على الطبيعة وعلى الانسان لم يلبث أن صار أكثر منهما رقا وعبودية (٣٢) .

لقد كان روسو شديد الحساسية الى درجة تكاد تكون مرضية بظلم المجتمع كما رآه فيما يدبره الآخرون من دســائس ومكائد . ولو كان له من الخفاء وســـعة القدرة ما لله كما تفكه هو بلهجة الخطابة فى الجولة السادسة ، لاستطاع أن يعيش فى سرور ، ولعمل صالحا بينهم ، ولاســتطاع أن يعبر بما هــو أوضح من ذلك عن شوق المغترب الى شكل من البرانية مبرأ من العبودية ، وشوقه الى النشــاط غير المشروط بالزمان ، والى العلاقات المتحررة من السيطرة . ولكن انى لروسو أن ينال ماتفرد به الله من صفات التعالى ؟ فهو اذ كان محصورا فى اطار معقولية مشـــدودة الى الزمان ، فقد اختار العالم الداخلى وبحث عن توسيع نطاق الوجود داخل الأبعاد المحــددة للواقع الطبيعى ، ولكنه بالغائه الزمان فى هذه المحاولة ربما صــار أول متصوف دنيوى للعالم المعقول .

٣ ـ المظاهر الحالية للتمرد :

ان الحركة التى كان روسو أول من عبر عنها قد صارت تيارا معارضا واضحا جدا فى المجتمع المعاصر . وماكان فىبداية الأمر تجربة متردد غير دقيقة لتعريف الوجود طبقا للمقولات « الطبيعية » أكثر من العقلية ، قد اكتسب فيما بعد أهمية عظيمة باقامته حقيقــة البنيان النفسى معارضا لحقيقة عــالم العمل . وان فعل الرومانطيقية على الاســتعداد العقلانى الغالب فى المجتمع ، قد برز على أشده فى الاحتجاجات النفسية على المجتمع التقنى . وقد قويت هــذه الحركة فى مجــالين هامين : فى المقام الاول تأيد صدق فهمه للواقع عن طريق معرفتنا المتزايدة للسلوك النفسى . وفى المقام الثانى فان القهر الواقع من العالم المقيس بمقاييس الزمان ، مرادفا للعمل ، والذى أدى الى الانسحاب الى الجوانى ، قد امتد امتدادات طافية .

---

(٣٠) نفس المرجع ص ٩١ .

(٣١) نفس المرجع ص ٢٣٦ من « العقد الاجتماعى »

(٣٢) نفس المرجع ص ٢٣٦ .

فى هـذه الظروف رأينا ما كان كامنا على نطاق واسـع من فوضى متزايدة ومن « قلب لوضع الزمان » قد أخذا يظهران فى وضوح وجلاء .

ولتوضيح النقطة الأولى ، أذكر فقرة من « فرويد » تستلفت النظر . ان حدس روسو هنا يلقى تأييدا لا يخلو من تحفظات . وقد قرره فى أوضح العبارات :

« استنادا الى بعض معطيات التحليل النفسى التى نملكها اليوم ، يجوز لنـا أن نرفع صوت الشك فى افتراض كانط الذى يرى أن الزمان والمكان هما الصورتان الضروريتان لفكرنا فنحن نعلم مثلا أن العمليات النفسية غير الواعية « غير زمانية » وهذا يعنى أنها غير مرتبة فى نظام الزمان ، وان الزمان لا يخضعها لأى تغيير ، وان صورة الزمان لا يمكن أن تنطبق عليها (٣٣) » .

والنقطة الثانية قد صاغها الفيلسوف السياسى الهجيلى « اريك ڤيل » صياغة جيدة أيضا . فمجتمع اليوم الذى اتخذ العمل شعاره الموجه ، هو عقلانى الى درجة كبيرة من الوجهة الوظيفية والتقنية للصراع مع الطبيعة بحيث أنه يخضع الفـرد اخضاعا متزايدا للتناقض القائم بين ضرورة المجتمع العامل من جهة وعدم حساسيته من جهة أخرى ، وفى مثل هذه الظروف ينزع الفرد الى أن يكون عاريا عن المعنى . وما دام المعقول يغرق الانسـان على هذا النحو فى « اللامعقول المطلق » ، فان عقلانية المجتمع الحديث معيبة والفرد يعوزه الرضى بحاله .

« وهكذا يتطلب العقلانى الناقص ، فى ذهن الفرد ، ما يسميه المجتمع العنصر التاريخى ، أعنى القيم التقليدية المقدسة ، والشعور والجوانية . وانما الحيـاة « الجوانية » هى التى تكون « فردية » الفرد بمقدار ما لا يكون هذا الفرد مجرد عامل من عوامل الانتاج . ويجد الفرد معنى فى الصراع ــ سواء كان هو الصراع الخارجى مع الطبيعة أو الصراع داخل المجتمع ــ وذلك فقط الى الحد الذى يبدو فيه الصراع ضروريا له ليكون قادرا على أن يحيا لنفسه وفق قيمته المقدسة (٣٤) » .

---

(٣٣) الترجمة النموذجية موجودة فى سيجموند فرويد « ما وراء مبدأ اللذة » (١٩٢٠) الطبعـة النموذجية لاعمال سيجموند فرويد النفسية باكملها ، ترجمة جيمس ستراتشى م ١٨ لنـدن مطبعـة هوجارث ومعهد التحليل النفسى ١٩٥٥ ص ٢٨ . وانظر ايضـا الملاحظات الاخـرى الماخوذة من نفس المرجع م ١٤ ، ١٩٥٧ اللاوعى (١٩١٥) ان عمليـة نظام اللاوعى غـير زمانية اى انها غير مرتبة زمانيا ولا تتغير بمرور الزمان ولا علاقة لها بالزمان اطلاقا ، والاستناد الى الزمان مرتبط مرة ثانية ، بعمـل نظام الوعى . ان عمليات الوعى لا تعير الواقع الا التفاتا قليلا . وهى خاضـعة لمبدأ اللـذة ويتوقف مصيرها على مدى قوتها فحسب وعلى ما اذا كانت تنجز مطالب قاعدة اللذة ــ عدم اللذة » .

(٣٤) « الفلسـفة السياسية » ١٩٥٦ ص ٩٣ هذه الجملة سبقتها العبارة التالية :

« ان الصراع الاجتماعى حتمى فى كل مجتمع خاص يظهر الفرد فى آن واحد على ضرورة العمـل الاجتماعى وعلى طابعه اللامعقول . وهو يلقى بالفرد على نفسه ويبين فى نفس الوقت أن هذه النفس ان هى الا لفظ مجرد من المعنى و لامحصل له : المعقول يغمره فى اللامعقول المطلق .

ويرينا « فيل » فى وضوح كيف أن مجتمع العمل ، فى صورته التقنية ، قد أحدث انقلابا فى ذلك النظام السابق ، على الأقل كما عبر عنه أولئك الذين يسرت لهم ظروفهم اقناع أنفسهم وغيرهم بهذه الايديولوجية . ونحن اليوم نعمل لنعيش ولا نعيش لنعمل . وتلك الحياة ، كما توضح لنـا الشواهد ، لا يكون التماسـها خارج دائرة العمل فقط . وفى المجتمع المسرف فى العقلانية نجد أن الامكانيات المغرية ، امكانيات اعتبار الوقت مرادفا للفراغ ، اعنى (الوقت للاستهلاك) ، ذات اهمية فى اعطاء مغزى لوجود الفرد كأهمية الوقت المبذول فى العمل الانتاجى سواء بسـواء . وحين لا يكون الشخص عاملا منتجا ، فانه يكون مستهلكا . والاستهلاك فى هـذا المقام انما هو الوجه المقابل للانتاج . والاثنان وجهان لصراع واحد يرمى الى انتزاع الحياة من وجود اتسم بسمة الموضوعية أو بسمة الشيئية . ان هذا الصراع هو الذى يضع الزمان فى عبودية فوق الوجود . والأسراف والتبديد كذلك هما تحية الكفاية والانتاج . والاثنان يوجهان مجتمعنا توجيها متزايدا . ومن حيث أن الزمان أحد العوامل الرئيسية للكفاية فانه حاسم بالنسبة للتبديد . انما الزمان هو الذى يجعل معـادلة بين الانتاج للاسـتعمال والانتاج للتبديد . بل أن الاهمية المتزايدة لقطاع النشاط الثالث ، أو أشتغال الخدمات كما يسمونها ، ليست دلالة على وجود فرصة اكبر أمام الفرد خارج حدود العمل الانتاجى لمواصلة الغايات التى وسمها حرا من ظروف الاغتراب . والناس الذين هم موضوعات للعمل من حيث هو «خدمة» يميلون الى أن يستعملوا وان يستهلكوا شأنهم فى ذلك شأن مصادر الانتاج ، ويدخلون ضمن مواد دورة التغيير . وهذه الضغوط التى يمارسها الأمران ــ الزمان كعمل والزمان غير الانتاجى ــ تفرز بصورة ملحوظة الميل المتعاظم فى العودة لا الى النفس فحسب وانما فى العودة الى الداخل للتزود بالغذاء من النفس الجوانية .

وفى هذا المقام لا يبدو أن تحليل « فيل » يذهب بعيدا الى الحد الكافى . لان فـرار الناس الى « الجوانية » فى الوقت الحاضر ليس مرادفا للرجوع القهقرى الى القيم التاريخية ، الى مقدسات الماضى . ان التماس الاندماج والاتحاد قد يمثل رغبة فى الامتلاك من جديد لصورة من الوجود وطائفة من القيم كان الاقرار بها من المجتمعات السابقة أتم وأوسع . ومع ذلك فالتيار المضاد الحالى الممثل فى التمرد على الزمان ليس صورة من صور المحافظة على القديم ، ولا هو ثورى فحسب ، ولكنه أدنى الى أن يكون حركة تطور من الداخل وهى تحدث . وهذا أمر له دلالته وسط مجتمع فقد التاريخ فيه ملاءمته كذكرى للماضى واطـار للوجود . ان الغوص الى اعماق الوجود الذى يقرره هذا المجتمع فى حماسة شبه دينية هى الرمال المتحركة لحاضر متغير على الدوام (٣٧) . والمستقبل كنتيجة لملامحه التى يصعب على الخيال

(٣٧) انظر ضمن تحليلات زوال الماضى كنثى كنيستون : « غير الملتزم » نيويورك ١٩٦٥ وخصوصا الفصل المعنون « التغير المزمن وتقديس الحاضر » .

ان يتفرسها ، غير متيقن من ناحيتين معا : من ناحية من حيث هو امكانية ومن حيث ما سوف يتطلبه ، ومن جهة اخرى فان تشبع الماضى تشبعا ماديا زائدا عن الحد ، لا ينبىء عن ايام تغشاها ظلمة العوز فى المستقبل . (ونحن نتحدث هنا عن المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا التى تسير باستمرار فى اتجاه يجعل منها جزيرة منعزلة عن بعض الحقائق القاطعة البارزة فى حياة العالم) ، وان مطالب حاجات الانسان قد ملأت وقته وجعلت منه وظيفة لعقله . والآن وقد نجح العقل فى تفريغ الزمان من معناه فان الوعى الموجه يصبح أن معا غير واف ولا ضرورى كاسلوب الوجود . وهذا الامر سيتسع مداه عما قريب . وحقيقة الأمر أن الدفع الى العودة الى الجوانى لا يعدو ان يكون مرادفا للرفض الشامل للماضى والمستقبل . والتأكيد على الحاضر هو ، كما يبين كنيث كينستون ، « رفض غير مباشر لقدرة الآنية على وضع القيــود على الزمان (٣٨) » . والنزول تحت الوعى ليس هو تذكر التاريخ ولا هو جعل الماضى فى تعارض مع الحاضر . إنه افناء التاريخ منظورا اليه على أنه استعادة للماضى ، وعلى انه « اخلاقية حية » . اعنى على انه مجموعة من الأنظمة والمواصفات تمكن المجتمع من التماسك والدوام والتطور (٣٩) . وهكذا « يتشكل قلب الوضع الزمانى » فى الصورة الاجتماعية للفوضى ، ويظهر الضــوء الخفيف لظله المبعثر على اضمحلال المجتمع اضمحلالا لا مفر منه .

ويسهب كنيث كنيستون فى تحليله البارع عن «الشباب المنحرف فى امريكا» فى مناقشة بحث هؤلاء الشــبان عن التكامل الشخصى والتعبيرية الفنية وفورية التجربة وتلقائية الشعور وتفضيلهم العاطفة على العقل والخيال على الواقع (٤٠) . ويرى المؤلف أن فترة الشباب فى أمريكا هى فترة اغتراب مصدره الضغط الاجتماعى . وإنه من بعض ثمرات ذلك أن حياة من يبدو عليهم الاستقرار من الكبار فى امريكا لا تخلو من الاغتراب (٤١) . الا انه رغم ذلك يمضى فى بحثه فيضيف قوله : « ان ما هو مفتقد فى اغتراب الشباب الذين درسنا حالتهم ، كمــا هو الشأن فى الاغترابات الصغيرة أو الكبيرة عند الأكثرين من غيرهم من الامريكيين هو النقد الجذرى أيا كان لمجتمعنا ، أو أى بديل ثورى للوضع الراهن (٤٢) . أما انا فأرى ، على العكس ، أن التمرد على الزمان هو مد صاعد فى الحياة الغربية التى تسير فى تيــار مضــاد مباشر لتقاليدنا الفعلية الطويلة الأمد . وما هو مخبوء فى العين الوسنانة ، عين صاحب الأسرار والغيبيات ، هو امكانية تحول بعيد المدى ، كما كان مفهوم الزمان ذاته . وان

(٣٨) نفس المرجع ص ٣٨ .

(٣٩) قابل المرجع المذكور ص ١٠٥ وقابلها وخصوصا ص ١٢٦ .

(٤٠) نفس المرجع ص ٢٨١ .

(٤١) نفس المرجع ص ٢٩٤ .

(٤٢) نفس المرجع ص ٤١٩ .

اعادة بنيان الوجود على أساس نفسانى يهدد بانتهاء السيطرة على الحياة التى تتلقى التوجيه من الزمان ، وهو الأمر الذى يحـدث على مدى العقلية المغرمة بالعمل ، وعقلية المجتمع الصناعى .

وان مظاهر التمرد الحالية هى من التعـدد والدقة بحيث لا يمكن تسـجيلها وتحليلها هنا . وهى تمتد من نشوة العوام التى يتيحها لهم الترانزستور المتجول الى البهجة السهلة المنال المتحررة من قيود الزمان ، تلك التى يثيرها القفز بالمظلات ، وقد أصبح الآن هواية تخلب النفوس ، ومن فتنة الأغنية العميقة والبسـيطة تغنى فى المقاهى الى العالم اللازمانى ، عـالم الفن المعـاصر الذى يمجد الهيكل الاساسى للون والشكل البدائيين (الفن البصرى) والذى يستشف عن طريق « واقعية سحرية » عالما داخليا يخضع للاوعى أكثر مما يخضع للانية ، ومن تيار الوعى فى الادب والفيلم الى صورة الوجود الظاهر « اللامعقولية » كما يصوره « بيكت » فى انتهاكه الصارخ للحياة المقيسة بمقاييس الزمان ، والبحث الدائب عن المشـاركة والاحتواء والاندماج الذى يمتد من اعاة بناء العلاقات الجنسية الى التماس موافقة الجماهير فى سياسة اليسار الجديد .

واخضاع الزمان للشعور فى الحركات السياسية للجناح اليسارى « الجديد » يتجلى فى المثالين وهما تافهان كما هما مألوفان فى مقال كتبه دوجلاس فيشر يصف جماعة الشبان الكنديين (موسم سنة ١٩٦٦) بأنهم اسرى لروح ومباهج اليسار الجـديد .

وقد قال عن المتطوعين العاملين :

« ولقد بان من نتائج استفتاء الرأى أخذ الأمور بروح الترخص والتيسير الى درجـة غير مألوفة . والواقع أن كثيرا من المتطوعين اخبرونى ، فرادى ، أن الهنود الكنديين يسلكون السبيل الصحيح الى معالجة المتاعب التى نواجهها نحن هـذه الأيام . وقد عرِف عنهم انهم غير متنافسين ، وخاضعون لتوجيه المجموع ، وغـير عدوانيين ، ومتحررون من قيود التقويم والساعات . والمتطوعون يحبون فكرة اليوم ذى الأربع والعشرين ساعة وهم مشغولون فى كل ساعة من ساعات النهار ، اذ أنهم متأهبون طلية اليوم ، ولكنهم يبغضون ساعات العمل الرسمية .

والمتطوعون قد التقطوا الروح التقاطا تاما لانه ندر أن يوجد منهم أكثر من النصف يسخرون من أى نشاط كان (فى دورات تدريبهم) ، لقد كانوا يستوقفون السـيارات المارة ويستأذنون أصحابها فى اصطحابهم بعض الطريق أو يستحمون أو يتشمسون أو يتناقشون (٤٣) » .

---

(٤٣) « اليسار الجديد كما يراه الاخرون وهو يعمل » فى البعد الكنـدى م ٣ رقم ٦ اكتـوبر — سبتمبر ١٩٦٦ « خواطر عن العنف » .

والأمر الذى أقلق فيشر وحيره أكثر من ذلك هو أن اطراح الحيــاة الخاضعة لمعيار الزمان قد تمشى جنبا الى جنب مع احتقار واضح للسياسة والسياسيين . فان « جميع الأحزاب السياسية والبيروقراطيين والخبراء : الكل على حد سواء » .

والحالة الأخرى هى عــدم الاحســاس بالزمان أو التوقيت الاستراتيجى أو التاكتيكى الذى اتسم به « تمرد شهر مايو سنة ١٩٦٨ فى فرنسا » . لقد كان حالة جذرية بأن تسجلها الكتب الدراسية لموقف ثورى لم يتطور الى ثورة لأنه لم يكن هناك أحد مستعد للاستيلاء على السلطة وتحمل المسئولية التى تقترن بها . وآخر من يفكر فى ذلك الطلبة . ما من أحد كان على استعداد لذلك اللهم الا ديجول (٤٤) » .

ومن التجارب الهامة فى الحياة اليومية أسوق مثلا بسيطا للكيفية التى يكون فيها التمرد على الزمان أمرا أساسيا للحياة فى مجتمعنا . ويعزو مكلوهان الاندلاع نحو الاحتواء الكلى فى آنية شاملة لكل شىء (٤٥) الواقعة فى الجيــل الأول للتليفزيون الى الاحساس المصاحب أو عمق الاحساس اللمسى لتجربة التليفزيون (٤٦) . وبواسطة الكهرباء فاننا نستأنف علاقات الأشخاص فيما بينهم كما لو كنا فى أصغر القرى (٤٧) وانى أسلم ، على العكس من ذلك ، بأن آخر ما تمخض عنه تنظيم الحياة بمقاييس الزمان ، الذى أنجزته الالكترونات والمحركات النفاثة ، من شأنه أن يزيل ما للعلاقات بين الناس من كيف شخصى أو نفسانى . ان المدرس فى التليفزيون قد يكون أو لا يكون موهوبا ببعد يقرب من القداسة (٤٨) . ولكن الأمر المؤكد هو أن اذنيه لا تسمعاننى وأن عينيه لا تريانني أو تعكسان صورتى . ان العلاقات الوظيفية وغير الشخصية البحتة فى القرية النموذجية مسخ وتدنيس : لأن الأشخاص موجودون أو يبدو أنهم حاضرون دون امكانية الاتصال بعضهم ببعض . ان الجرى وراء التعقيــد والابتهاج المكتشف حديثا فى اللمس لا يرجع مباشرة الى الوســائط السحرية وانما هو رد فعــل على استبدادها ، وهو أخشى ما نخشاه لأنه استبداد لاشخصى .

---

(٤٤) حنا أرنت : « خواطر عن العنف » فى ٢٧ فبراير ١٩٦٩ وفى هذا الصدد فان حركة الطلاب الفرنسية الثورية تشبه غيرها فى البلاد الصناعية فى تباينانها الحادة للحركات الثورية فى القرنين التاسع عشر والعشرين . فهذه الحركات كانت تقوم على افتراضات تاريخية وعقلية مسبقة واعية الى درجة عالية بالظروف والتوقيت . أما الاولى التى تتحدى تنظيم السلطة ذاتها فى صورة مؤســسات قانونية فانها أقل اهتماما بالاستيلاء عليها منها بكسر قبضتها على النشاط الانسانى فالصراع للاقامة والمقــاومة والتحرر لا يحدده الزمان ولكن تحدده قوى حيوية أهم ، وهو يأخذ شكل ثقافة مضادة أو ثورة ثقافية روحية فى طريقها .

(٤٥) تورلتو نيويورك ١٩٦٤ ص ٣٢ .

(٤٦) نفس المرجع ص ٣٣٦ .

(٤٧) نفس المرجع ص ٢٥٥ .

(٤٨) نفس المرجع ص ٣٣٧ .

ان تحسس الطريق نحو الاتصال والتماس التمام فى العلاقات وهو ما يتميز به أسلوب الشباب ، يتضمن الاعتراف بتعريف نفسانى للوجود ويعارض تنظيم الحياة فى اطار الزمان . وهى حياة على درجة عالية من التعقيل ، وبحيث صار الزمان واسطة واجراءات ، اكثر منه تجربة انسانية وطريقا عاما مهجورا لا يلائم السير فى طريق الوجود الانسانى الشخصى .

وأبرز مظاهر التمرد الذى كنا نتحدث عنه هو الطريق العريض الذى انفتح من داخله بواسطة العقاقير المثيرة لشهوة الجنس ولا يجوز التقليل من أهمية الافتتان بما يدخل فى منطقة اللا وعى .. وبصفة خاصة فانه قد قامت بين نفر من الشبان الأذكياء ذوى الحساسية حركة شبه طائفية ذات أبعاد واسعة بما لهـا من شطحات وسبل الى معرفة الأسرار الروحية ، وبما لهـا من جماعات وبما لهـا من دعاوى تبشيرية ، وبما لها من قادة مؤيدين ودعاة مبشرين بالانجيل الجديد ، وبما تتورط فيه من صراعات انفعالية ضارية مع أرباب السلطة فى عصرها . وما يعنينا بصفة خاصة هو كيفية انسلاخ الزمان من صورته المعتادة كأحد أبعاد التجربة فى اطار حالة الوعى المتعالى الذى تفجره عقاقير الهلوسة والتعليقات التالية على آثار هذه العقاقير المستمدة من حالات ذكرها كوهين، تعليقات نموذجية ، وسيكون فيها الكفاية لتوضيح الأمر (٤٩) .

« أصبح الزمان لا بداية له ولا نهاية ، وبدا فى بعض الأوقات وكأنه يتحرك بسرعة شديدة ، وبدا فى أوقات أخرى غاية فى البطء . ومع ذلك شد ما كان يدهشنى كلما نظرت الى ساعتى أن أجد أن ما مضى من الوقت قصير جدا (٥٠) »

« لقد قلت ان هذه (التجربة) قد بدأت كلها هذا الصباح فى الساعة الثامنة ، ولكنها بالطبع لم تبدأ . لقد بدأت فى مكان ما منذ ملايين السنين الماضية السحيقة قبل أن نقيس الزمان بالساعات (١٥) » .

ونقطـة ثانية يجب ابرازها ، وهى : الخواطر — التى تذكرنا بروسو — التى يعيدها ذلك الحامض الى الأذهان .

ان تحرك روسو من العزلة ، عن طريق الاتحاد مع الطبيعة والأشخاص ، قد استعاده بالرسم طالب من طلاب علم النفس مبينا تجربته تحت تأثير (عقار الهلوسـة) .

---

(٤٩) سيدنى كوهين نيويورك ١٩٦٤ .
(٥٠) نفس المرجع ص ٣٣٧ .
(٥١) نفس المرجع ص ١١٩ .

لقد ازلت قلعة الرمال الصغيرة القريبة منى وبسطت رمالى فوق شـاطىء محيط الوجود وقلت : والآن اذهب لتجد نفسك وعش كما كنت تعيش من قبل .

وان فقدان ذلك الشعور الحاضر بأنيتك ، انيتك من حيث هى منفصلة عن كل شىء عداها ، والاسترسال فى تيـار الانفعـالات الجارف من العواطف والحب والكراهية حيث تكون مجتمعا مع كل شىء آخر .. ها هنا تجىء الجدة (٥٢) .

وكما أن (عقار الهلوسة) لايوقف الزمان ، ولكنه يمدنا بمدخل الى مستوى من الوجود لازمانى ، فأنه كذلك لا يدفع الانســان الى (ما وراء) فائتى للطبيعة ، ولكنه على الأغلب يوسع ادراك الماوراء فى حدود الاماد اللاواعية لوظيفة المخ والعقل ، تلك الوظيفة الضافية ، وان تكن غير مرتادة . وكذلك فان الاتحاد ، وضياع الذات ، وحالة القابلية والاتصال المتصاعدين ، التى كثيرا ما ترتبط بحالة الهلوسة ، ليست من خواص الحامض . واذا كان استعمال عقاقير الهلوسة الأخرى قد ظفر بمقـام العبادة بين الشبان فان ذلك يرجع الى شىء جديد قد أوجده . ولكن مرجعه الى انه المفتاح الى تراث من الوجود « منسى » محجوب منذ زمان طويل خلف المأسوية الاجتماعية للنزعة العقلية الواعية .

وقد كتب سيدنى كوهين عام ١٩٦٤ معلقـا على الاسـتعمال المتزايد (لعقار الهلوسة) باعتباره حركة من حركات التحرر :

« انما تبدو حالة الهلوسة الجنسية جذابة للغاية ، لأن الكثيرين عاجزون عن تحقيق هذا الشعور من الانتماء . انهم يحسون أن المعنى يمكن العثور عليه ، وهو معنى ذو عمق يجاوز المعانى الدنيوية الباهتة ، وجميع الأديان المعروفة فى ايامنا هذه . وانهم يحسون أن من الممكن أن يقوم معنى اعظم وقيم امتن وعلاقات أبقى مما هو متاح لنا اليوم (٥٣) » .

وفى هذه النقطة نقول ان ظاهرة (الهلوسة) ـ كحالة وحركة ـ التى تبـدو كأنها مظهـر غير متسق لمجتمعنا (٥٤) تلقى الضوء على التغيير الواسع الذى ينهش أمعاءه . والسائرون على طريق الهلوسة الجنسية قد كشفوا عن انفسهم إلى ثبات واتساق ملحوظين ، هدامين للنظام الذى يحكم فيه الزمان دنيا العمل . وفى المثال الذى اسوقه من بين امثلة متعددة يمكن تحليلها واستخلاص نتائج مماثلة منهـا ، يلاحظ الانسان قضحا ورفضـا ظاهرين لبنيان « الشخصية البيوريتانية » تحت

---

(٥٢) نفس المرجع ص ٥ .

(٥٣) نفس المرجع ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

(٥٤) ان يصنع ناتج مضاد للعقل على هذه الدرجة فى ظل ما بلغته حضارتنا ذات الطابع العقلى العالى هو أمر يرقى الى ذروة المزاج : كوهين نفس المرجع ص ١٠٣ .

تأثير (الهلوسة) . وتعلق باحثة فى علم النفس على مجموعة من الاختبارات كان مطلوبا منها اجراؤها كجزء من التجربة فتقول :

« بعد عملية الرسم لشخص جاء اختبار (البندر جشتالت) وكان ذلك مصدر لهو بالنسبة لى وقد لهوت كثيرا باستعمال الورق فيه . كان هناك شعور بالبسطة وبالسخرية العامة من السلطة . وبينما كنت اعمل ذلك عرفت انه كان يجب عادة أن اضع جميع الأشكال على قطعة ورق واحدة . وانى لعلى حظ من ضبط النفس والاعتدال . وعلى أى حال فلم تكن لى متاعب مع « البندر » . لقد رسمت أشكالا حسنة وارتبطت بها ، وكان وضع كل ثلاثة منها تقريبا فى صفحة واحدة مصدر تسلية لى . بل اننى رتبت الأمر بدهاء بحيث بقى لى فرخ ورق كامل للشكل الاخير . وكان ذلك شبيها بالاستسلام لضرورة حشو الفم بالطعام بينما نعلم أن ذلك مخالف للأدب . وانه لسرور عظيم أن تأخذ فرخا كاملا من الورق للشكل الأخير . لا بل انى وضعته على نهاية واحدة منه (٥٥) » .

لقد دعا واحد من جماعات الهلوسة الجنسية اهل الشاطىء الغربى الامريكى الى « الغاء الحقيقة » . ترى هل هذا هو برنامج هذه الجماعة أم انه شعار برنامج اجتماعى ؟ كلاهما صحيح ، فأن (عقار الهلوسة) لا يقبل شيئا سوى اطلاق الميول الكامنة على نطاق واسـع فى طوايا المجتمع . فالحقيقة التى يراد الغاؤها هى تلك التى حددتها بصورة شاملة الديناميكا الداخلة للتكنولوجيا المحكومة بمقاييس الزمان . أن الذين يريدون أن يخلعوا رداء التقليد الوجيز اللامع ، وتقليد النشـاط العقلى والاتجاه الى الموضوعية فى الغرب ، يجدون الراحة فى تعاطى المخـدر . ان تعاطى هذا المخدر بكميات كافية يفك أسـار الكبت لدى الفئات المتعلمة وبخاصة من كانت لهم علاقة بالسـلوك والتفكير المنطقى القائمين على اختيـار الواقع والعمل لتحقيق البقاء والهدف الموجه (٥٦) . وان ما قد تشكك فيه الكثيرون قد تأكد فى اغلب الأحيان : انه وراء قيود عالم الوعى الهيجلى ، والعمل والزمان ، يكون الخلاص .

ان دلالة التمرد الحالى على الزمان لا يمكن توضيحها توضيحا كافيا . وتبين مظاهر توافره التى فحصناها انه جزء من تيار عام فى الحياة الغربية ، وخاصة من وقت أن اعطاه روسو صيغة كانت جد مناسبة . والتيار المشهود مازال قطعا نغمة خافتة انطلقت وسط ايقاع موسيقى عال . ومع ذلك فهناك من الدلائل ما يشير الى أن الصراع الخفى واسع الانتشار قد يأخذ اعظم الابعاد اهمية . ومن المنتظر ان يكتسب التمرد قوة لأن ظروف الحاجة الساحقة التى حركت عالم العمل العقلانى فى الغرب

---

(٥٥) نفس المرجع ص ١٤٥ .

(٥٦) نفس المرجع ص ٤٣ — ٤٤ .

لم تعد تلقى قبولا لدى الاغلبية . وليس هناك قصاص رادع ضد ما كان فى وقت من الأوقات نوعا من ترف الكسل والخرق . وحتى عندما يكون البقاء هو المشكلة على مستوى السياسة الدولية فاننا نكون قد دخلنا بعد اللامعقول . ان مشكلة البقاء الدولى عن طريق نظام الأمور الحالى هى فضلا عن ذلك مقصورة على عـدد قليل من ارستقراطية التكنوقراطيين ومراقبى السلطة . وان هناك تقوية أخرى لهذا الاتجاه نجدها فى انه فى الوقت الذى يصبح فيه الزمان احتكارا للاجراءات ، والعمل حقا للانسان ، فأن الناس يجدون انفسهم وقد واجهتهم الرغبة أو الالتزام بتفريغ مركب العمل مقيسا بمقاييس الزمان من الوجود ، لولا أن الحاجة الى خدماته أكبر مما كانت عليه من قبل فى الجانب الاستهلاكى للعملية ، وهنا يتصاعد التنازع لأن ملء الزمان بنشـاط استنفاد فائض الانتـاج ، يبدو أكثـر خلوا من المعنى عن الزمان كاطار للعمل . وليست هنـاك ضرورة منطقية تحتم أن اختفاء العمل ذى المعنى ، وربما ايديولوجية العمل فى الحضارة الصناعية ، يعنى ان « الفن حين يرتبط باهتمامات أخرى وبالكسل ، يبدو مستعدا ، وبطرق كثيرة ، نفسيا واجتماعيا لملء الفراغ الذى ترك شاغرا » (٥٧) ، كما قد قيل أحيانا كثـيرة . والفن هو تعبير عن الحقيقـة غير المحددة بقاعدة الزمان الضرورية . ومادام الزمان يسيطر على الوجود من خـلال المعادلة بين الانتاج والاسـتهلاك ، فان الفن سيبقى تسلية أو احتجاجا فحسب . والحل البسيط لمشكلة الانتاج لا يدخل فى حقبة من الوجود يمكن تعريفها بمعايير غير زمانية . . وفى العالم الحاضر نجد أن الزمان بوصفه منظما للاستهلاك ، لم يسعد بعد بتبرير الاتجاه العقلى المكتسب على انحاء مختلفة عن طريق العمل عندما أصبح مقصد الوجود . ونقول بوجه خاص انه فى مواجهة الانحسار المادى والمجاعة البازغة فى أجزاء كثيرة من العالم ، لايزال هناك قدر من الهراء لا يمكن قمعه حول نشـاط الاستهلاك على نطاق كبير ، أى السرف والتلف . والزمان المملوء بالعمل تجرى معاناته فى النهاية كانه قهر يمارسه العقل . والزمان المملوء بالاستهلاك له مظهر اللامعقول ، مظهر الموت وتدمير الذات (٥٨) . وهناك حقيقة لا تخلو من المعنى وهى أن التمرد على الزمان يسير غالبا حافى القدمين مهلهل الثيـاب . وواضح أنه صنو للمعذبين فى الأرض . وهو كثيرا ما يحمل تجربة لتزهد جديد مهيأ لتبديد الزمان دون عناية بقيم انسـانية أولية . ويكون هذا ممكنا فقط عندما يكف الزمان عن أن يـكون العملة الجارية بين الناس جميعا . ولكننا اذا أخذنا الأمرين معا ، وهما الميل الغالب لمجتمعنا ورد الفعل الذى يولده ، وجدناهما متآزرين فى تصـعيد قلقلة الحياة الاجتماعية الغـربية .

---

(٥٧) جليرتوفريرى : « الوقت والفراغ والفنون » فى مجلة ديوجين عـدد صيف ١٩٦٦ ص ١١٦ .

(٥٨) أنظر التحليل الشائق عن الملل . والفتيان والاحياء بقلم دومتريو فى مجلة اسبرت عـدد ٩ سبتمبر ١٩٦٢ ص ٢٩٥ ــ ٢٩٨ . ان آخر تسلية يمكن أن يجدها الانسان فى المجتمعـات المختصرة هو التفسير ، وعلى نحو أدق الذات لان غريزة البقاء قد ضعفت كالغرائز الاخرى .

ان نمط المجتمع القائم على الانتـاج والاستهلاك معا ، يدب فى أوصاله ميل الى الموت ، وهو نوع من ضرورة استهلاك الذات وتدميرها . والانسحاب من العقل على نحو ما رأينا يتاخم فى بعض المواطن تهافتنا فى غريزة البقاء . والمجتمع العقلى فى قمة انجازاته يبدو أكثر ضآلة من اى وقت مضى . ويتسبب فى أن يقوم فى ثنايا بنائه الظروف التى من شأنها أن تؤدى الى تدهوره الداخلى . وهناك أمر لا يقل عن ذلك أهمية بل هو أكثر سخرية : هو أن حركة بسط اهاب الزمان التى صارت قاهرة ومتسـلطة ، مازالت مستمرة فى الدول البيروقراطية المتقدمة يحبوها فى ذلك اكتشـاف الحقيقة من الداخل ، فكذلك تظهر قارات شاسعة آخذة فى النهوض من جمودها اللازمانى (كما يقاس بمقاييس النمو الاقتصـادى) . وهى وقد طالما امتدت اليهـا يد الطبيعـة بالقهر والعسف ، تواجه بضرورة اكتشـاف الصـور الجذابة للوجود الذى وعدت به الأحكام القاسية لعالم الزمان العقلانى . ويتراءى فى الأفق نشوء تناقض بين الأبعاد التاريخية والعالمية . ففى اللحظة نفسها نجد حضارة التقنية المصبوبة فى قالب الزمان ــ مثلها مثل ثقل الطبيعة الخالق الذى قهرته ــ تبدو وكأنها تلقى على كواهل الناس عبئا ثقيلا يقهرهم على أن يلتمسوا النجاة بحياتهم الى بعد الوجود ، ذلك البعد الأساسى اللازمانى الذى لا ينحل الى غيره .

الكاتب : فريد كالورين

- درس العلوم السـياسية والاقتصادية بكلية كنوكس للاهوت البروتستانتى بجـامعة تورنتو ، والاخلاقيات الاجتمـاعية بكليـة اللاهوت البروتستانتية بجـامعة استراسبورج .
- كان سكرتير الدراسات لحركة الطـلاب المسـيحيين بكندا . وهويقوم الان بالتدريس بقسم العلوم الاجتماعية بجامعة أوتاوا ، كما يشترك فى تحرير مجلة «جيلنـا» التى تصدر فى مونتريال .

المترجم : الدكتور عثمان امين

- كان رئيسا لقسم الفلسفة بكلية الاداب .
- عضو المجلس الأعلى للفنون والاداب .
- عضو شرف الجمعية الفرنسـية من أصدقاء ديكارت .
- له ١٦ مؤلفا فى الفلسـفة ، كمـا أن له كثـيرا من المترجمات والتحقيقات .



إلى علم النفس

بقلم
جول دوشين
ترجمة
د. زكريا فهمى

المقال فى كلمات

يتحدث الكاتب فى هذا المقال الممتع عن التقدم الكبير الذى احرزه علم البيولوجيا فى سبر اعماق الحياة مستعينا بما تفتحت به الآفاق العلميـة من مفاهيم جديدة ، ومن دراية بخاصيات الحامض النووى المذهلة ، تلك الخاصيات التى تؤلف العنصر المشترك لجميع الكائنات الارضية الحية . انه يستعرض الآراء الحديثة عن اصل الحياة ، متناولا مرحلة ماقبل الحياة ، وتطور الحياة من الماضى السحيق الى الآن ، والتغيرات التى لابد أنها طـرات على جزيئات الحامض النووى . كما يتحـدث عن الفـرد وارتباطه بالكون الخارجى بقوى شاملة وكيف أن الانسان حيوان اجتماعى . ويتناول كذلك اللاشعور والشعور مبينا امكان ردهما الى حقيقة اساسية واحدة ، هى تركيب جزيئى فى اعماق سياقه الكونى . ويبين لنا أثناء تناوله الشـعور واللاشعور أن الفرض القائل بأن الحياة ليست قائمة على الكـربون بل على السليكون فرض لا تؤيده النظـريات العلميـة اليوم . أما من حيث منشأ

الأفكار فيرى انها ترجع الى انبعاث قوى صادر عن اللاشعور ، والى عملية استدلال قائمة على الملاحظة الموضوعية ، كما يرى ان الفرق بين الانسان وغيره من الكائنات الحية يرجع الى قدرته الكبرى على اظهار اعماق لاشعوره . أما التضامن والتنازع فهما فى رأيه لازمان لبقاء الحياة ويتمثلان فى عملية الانتخاب الطبيعى . ويتناول الكاتب ايضا مسالة الجنس والتكاثر وعلاقتهما بالميل الى العشق الذى تتمثل غايته الوحيدة فى استمرار الجنس . أما النوم والاحلام ففيهما يتحرر الفرد تماما من التفاعل مع الأفراد الآخرين ، ويتيحان له تغلغلا اعمق فى عوالم اللاشعور يؤدى احيانا الى فهم ادق للشفرة الوراثية . أما من حيث الدين فيرى الكاتب ان الاله بازليته ولانهائيته هو جوهر الكون . ويشكل بالنسبة للانسان مركزا رائعا للنظام الشامل .

١ ــ مقدمة :

فى السنوات الخمس عشرة الأخيرة ، احرزت البيولوجيا تقدما كبيرا اثار اعظم الآمال ، ولكن على الرغم من أهمية الكشوف ، التى تحققت فى ميدان علم الوراثة الجزيئية بصفة خاصة ، فاننا ينبغى أن نعترف بأنه مايزال علينا أن ننجز الكثير اذا ما أردنا أن نقدر الحياة ككل ، وضمنها الكائنات العضوية العليا ، على أن البحث يواجه تعقد المشكلة بنجاح متزايد باستمراره متحركا فى اتجاه جديد تماما ، لا على مستوى الخلية فحسب ، بل على النطاق الجزيئى والذرى أيضا . والواقع أن هذا التغير الجذرى فى طرق التفكير هو الذى قد يمكن عالم اليوم من دراسة ميادين لم تكن مطروقة الى الآن ، حتى ولو كان ذلك من وجهة نظر تأملية الى حد كبير ، وذلك عن طريق تزويده بمجال لطرق جديدة فى التفكير . وهذا ينطبق بصفة خاصة على علم النفس ، الذى لم يصبح بعد ، على ما يبدو ، موضوع تفكير ينصب على المستوى الجزيئى .

وهدفنا الوحيد هنا أن نقترح منهجا لدراسة تحليل المفاهيم ، يقوم على أساس مفاهيم جزيئات الحامض النووى المذهلة ، التى تؤلف العنصر المشترك لجميع الكائنات الأرضية الحية ، والتى هى العوامل الأساسية للمعلومات التى تتحكم فى

تركيب الأنزيمات ، ومن ثم فى تركيب جميع الجزيئات الحيوية . ولابد بالضرورة أن تصاغ دراستنا فى عبارات عامة الى حد كبير ، بل غامضة أحيانا .

والواقع أننا نستطيع أن نتخذ وجهة نظر تؤدى الى فهم أوضح لحقائق اولية مثل اللاشعور والشعور ، اذا ما أخذنا بالفكرة التى انحاز اليها « كريك » ، و « أورجل » (١) ، والقائلة ان الشفرة الوراثية نفسها قد تعرضت لعملية تطور بطيئة (وان كان يتعين علينا أن نعتمد على آلية عامة الى أبعد حد ، لا يمكن تجاهل سياقها الخارجى) .

وينبغي أولا وقبل كل شيء ، أن نلخص بايجاز الآراء الحديثة الخاصة بأصول الحياة ، وذلك حتى نفهم العناصر الأساسية للمشكلة .

٢ ـ أصول الحياة :

يبلغ عمر أقدم الحفريات التى اكتشفت حتى الآن نحو ثلاثة آلاف مليون سنة . ولكن مفهوم الحفريات الجزيئية (٢) المستحدث منذ وقت قريب يتيح من ناحية المبدأ امكانية كشف آثار من الحياة أقدم حتى من الحياة السابقة ، وذلك بسبب الثبات العجيب الذى تتميز به بعض الجزيئات الحيوية التى يمكن أن تبقى بعد تحلل تركيبها العضوى المورفولوجي ، وهكذا ، فان الاربعة أو الخمسة آلاف مليون سنة المحددة عادة لعمر قشرة الأرض قد تصبح بسرعة زمنا أقصر بالنسبة الى فترة الاعداد الكيمائى الضرورية ، المعروفة باسم المرحلة قبل الحيوية ، التى سبقت نشوء الكائنات الحية . هذه الصعوبة المحتملة يمكن الا تنشأ ، لأن السديم الشمسى الذى نشأت منه الأرض ، اشتمل بالفعل ، استنادا الى بعض الكتاب (٣) ، على مرحلة نشاط تمهيدى من هذا النوع .

وأيا كان الأمر ، فان جزيئات الحامض النووى الضخمة (التى يمكن ان يصل وزنها الجزيئى الى ١٠ أس ١١) قد تعرضت لتغيرات هائلة خلال مجرى تطورها . ولا يرجع هذا فقط الى أن الشفرة الوراثية ، التى تقوم الآن على أربع قواعد بيورينية وبيريميدينية معروفة ، ليست الا حالة عابرة ، والى أن الحياة قد تطورت فى الماضى السحيق ، على أساس كمية من المعلومات أكثر تقيدا الى حد كبير . بل ينبغى علينا

(١) F.H.C. Crick, J. Mol./Boil. 38, 367, 1968; L.E. Orgel, ibid, 38, 381, 1968

(٢) M. Calvin, chemical Evolution Oxford, Clarendon Press, 1969.

(٣) M.H. Studier, R. Hayatsu and E. Anders, Geochimica et Cosmochimica Acta, 32, 151, 1968.

أيضا ان ندرك ، وهذه هى النقطة الاساسية فى بحثنا ، ان الأحداث الجزيئية لا يمكن عزلها ، وأنها فى الواقع وثيقة الارتباط بالبيئة الكونية .

هاتان الحقيقتان المترابطتان تتضمنان ، اذن ، مبدأ فعل ورد فعل ينزع العلماء فى كثير من الأحيان الى تجاهله بسبب ما ينطوى عليه من تعقـدات ، ولكن هذا المبدأ سيؤلف موضوع بحثنا .

٣ ـ الفـــرد :

ان الحلزون المزدوج ، ذلك التركيب الفراغى البديع والمثير الذى اوضحته لنا دراسات حيود أشعة اكس (١) ، ليس الا نموذجا مثاليا للحقائق المختلفة التى توجد فعلا فى الخلية الحية ، والحامض النووى لا يصبح ذا أهمية فى الواقع الا عندما يقوم بعمله ، وعندما يمكن أن يكون تركيبه وتشكله مختلفين الى حد كبير . ويمكننا على الفور ، انطلاقا من هذه الحقيقة ، أن نستطرد قائلين ان الكائنات الحية نفسها لا يمكن أيضا أن تدعى لنفسها اية فردية حقيقية : لانها مرتبطة بالكون الخارجى كله بواسطة قوى شاملة (قوى الجاذبية والقوى الناشئة من مصادر كهربائية « كقوى فان درفال ») . وليس هناك من يعرف الآن التأثير الصحيح لهذه القوى ، التى يمكن الى جانب احداثها لتأثيرات سمعية وبصرية وشمية أن تقوم بدور هام بصفة خاصة فى السيكولوجيا الجماهيرية ، ولكن من الواضح أن التفاعل المتزايد بين أفراد جماعة ما من شأنه ان يؤدى الى تأثير يزداد اضعافا لشخصيتهم باطراد : أى أن السمات المميزة للفرد الواحد تنزع الى التحول بما يتناسب مع تفاعلها ، مذعنة لتركيب هو تركيب المجتمع ، وهنا توجد ، كنوع من الاجراء التعويضى ، سمة جديدة تؤثر على نحو ضار بالأجزاء الفردية المكونة للكل ، والقول فى هذا الصدد بأن الانسان حيوان اجتماعى ، انما هو تأكيد بأن لديه نزعة متأصلة للتخلى عن عزلته من أجل الاندماج (والتلاشى جزئيا) فى اطار أوسع . هنا تكمن بلا شك ، أصول النظريات الجماعية المثالية ، التى وضعت بسبب غريزة غامضة ، فى مقابل مذهب التحرر (وهذا الأخير مثال للحاجة المضادة ، لأنه ينطوى على تقديس للفرد) .

٤ ـ اللاشعور والشعور :

يمكن ، كما اوضحنا ، اكمال تطور الأنواع ، على النحو الذى تخيله المفكران

(1) J.D. Watson, Molecular Biology of the Gene, New-York W.A. Benjamin Inc; 1965.

الكبيران « لامارك » و « دارون » ، بتطور جزيئي أولي (١) ، وهكذا فان نظرتنا للحياة في الوقت الحاضر لم تعد منفصلة عن تاريخها . ومن ثم فان هذه النظرة شاملة ومتماسكة على نحو يبعث على الغبطة ، وتزودنا بعديد من الآفاق . وفضلا عن ذلك ، فان جعل السدم ، أو جو الكواكب البدائي على الأقل ، مستقرا لأصل الحياة ، يشير الى ان العملية ليست بالضرورة وقفا على الأرض ، وانهـا قد تكون على النقيض ظاهرة كونية شاملة . وتحتوى المجموعة الشمسية على سلسلة كاملة من المواقع التي يمكن فعلا أن تكون العمليات المولدة للحياة قد قامت فيها بالعمل في وقت ما . وتتمثل هذه الحقيقة بوضوح قاطع في النيازك المتفحمة ، فهى اجرام سماوية نشأت على الأرجح من هذه المجموعة ، ولكنها مستقلة تماما عن الأرض ، وتحتوى بلا شك على جزيئات عضوية (٢) ، كبعض قواعد الحوامض النووية ، بل تحتوى كذلك على « البريستين » و « الفيتين » ، وهما مادتان شبيهتان بالكلوروفيل . ولا يستطيع احد حتى الآن ان يثبت أن هذه الجزيئات قد تخلقت عن فترة نشاط بيولوجي ، مهما كان بدائيا . ولكن حتى لو كانت هذه الجزيئات تركيبات غير مولدة للحياة ، فاننا يمكننا على الأقل ، ان نستنتج ان الجزيئات اللازمة للحياة يمكن أن تتكون خارج الأرض .

وهكذا يمكن أن نصل الى نتيجة مؤداها أن العملية السابقة لعملية الحياة ظاهرة عامة لابد أن تحدث بين كواكب عالم المجرات ، بشرط أن يكون ضياء النجم الذى تدور حوله هذه الكواكب ثابتا بدرجة كافية لفترات تبلغ عدة آلاف من ملايين السنين ، وأن تكون المسافة بينهما مناسبة فيما يتعلق بدرجة الحرارة . وهكذا يمتد بصرنا لينظر الى الحياة بوصفها تقدما مطردا ، على نطاق كوني (حسب ظروف التطور الكوكبي) . وعلى الرغم من أنه من المستبعد الى حد كبير أن تكون الحياة قد تجاوزت في تطورها ، في مجموعتنا الشمسية ، مرحلة أولية للغاية ، فان من المشجع مع ذلك أن نتصور آن أنواعا متقدمة من الكائنات ربما تكون قد تطورت في مكان ما في أعماق مجراتنا . والواقع أن جزيء الحامض النووى ، مثله مثل النجوم والمجرات ، يتأثر خلال مجرى تطوره بالتفاعل مع العالم الخارجي (من خلال الاصطدامات ، والاشعاع ، والمؤثرات الكهربائية والمغناطيسية) ، ومع القوانين الكونية الأساسية . اى ان الطريقة التى تمثله بها لا يمكن أن ينظر اليها الا على انها تصور مثالى ، على حين أن الحقيقة ، وهى مختلفة الى حد كبير ، تتضمن عددا كبيرا من الانحرافات . وهذه هى العملية التى يصبح بواسطتها الحامض النووى مرتبطا لا بالمكان وحده (اى يصبح له تركيب ثلاثي الأبعاد) بل بالتقدم في العمر أيضا

---

(١) J. Duchesne, «L'évolution chimique et L'origine de la vie» (Bull. Acad. Roy. Belg. 48, 1427, 1962 .

(٢) J. Duchesne, Science Journal, 5, 33, 1969.

الزمان) ، والطفرات ، اى بالتحولات السريعة ، بل ما يمكن ان نسميه بالتحولات الداخلية والانعكاسية .

الا يكفى لتقدير المغزى التاريخى لهذه العملية ، أن نمعن الفكر فى حالة مشابهة هى حالة علماء البلوريات الكلاسيكيين ، الذين نظروا بالمثل ، الى بلورتهم فى حالتها النقية على انها نموذج كامل لعنصر تركيبى أولى ، اما الآن فقد علمنا البحث الحديث ان العيوب الموجودة فى التركيب البلورى (أعنى الانحرافات عن النموذج المثالى الأولى وهى انحرافات قد تكون تافهة) هى على وجه التحديد التى تنتج بعضا من اهم خواص المادة واكثرها فاعلية . واذا طبقنا نفس منهج البحث على جزىء الحامض النووى الذى يمكن أن يقارن بالبلورات لأنه ضخم بدرجة غير عادية — يحتوى على الف مليون ذرة تقريبا — فاننا ندرك أن العيوب التى ينبغى الا يخلط بينهـا وبين العيـوب ، بالمعنى الخلقى ، والتى تقوم البيئـة الخارجية بادخالها على نحو ما فى التركيب المثالى ، هى على وجه التحديد ، التى تحدد الخصائص الحقيقية الأصيلة للكائن الفرد الذى يحتوى عليها ، وبالمثل فان الارتباط الوثيق بين الجزىء وبيئته يفسر الاختلاف بين الأفراد المنتمين الى نوع معين والمنتمين الى طوائف مختلفـة من الكائنات العضوية على حد سواء : ذلك لأن التجربة الكونية ليست فريدة فى نوعها . على أنه ينبغى أن يلاحظ أن كل اختلاف فى البيئة لا يؤدى حتما الى تمزق المادة الحية . ذلك لأن هذه المادة يمكنها الى حد ما أن تحتفظ باستقلالها الذاتى ، ويرجع الفضل فى ذلك الى ظاهرة التنظيم الذاتى ، التى تصلح العطب وتعيده الى حالته السوية .

على أن من الواضح أن العيوب المختلفة لا يمكن ان تتراكم فى جزىء بلا حدود ، تماما مثلما لا يمكنها أن تتراكم فى بلورة دون أن يؤدى ذلك الى نتـائج وخيمـة ، والواقع أن هذا النطاق الحرج هو الذى تتقـرر فيه ، بالتحـديد ، قابلية الموت والبلاهة ، كما هى الحال فى التغيرات الكيفية التى تطرأ عند درجة حرارة حرجة معينة . ومن الجلى أن الجزيئات الصغيرة ، كجزىء الماء المتواضع ، الذى يتألف من ثلاث ذرات فقط ، لا يمكن أن تشترك فى هذه العملية ، بل انه لو حدث ، بمحض صدفة سيئة ، أن أزيلت من هذا النظام ذرة ايدروجين واحدة فقط ، فان خواص المجموعة الناتجة لا تعود تحمل شبها للمادة الأصلية . ولكن ازالة ذرة واحدة من جزىء ضخم بتأثير البيئة ، وهى ازالة قد لا تغير التركيب بدرجة تكفى لكشف التغير بواسطة طرق ملاحظتنا ، على الرغم من الفاعلية الهائلة لهذه الطرق ، هذه الازالة قد تحدث مع ذلك تغيرا أساسيا فى آلية التكاثر (أى أنها قد تحدث بعض التغير فى الخواص الوراثية) . ومن ثم فإن العيوب الهامة هى العيوب التى تحول بين التكاثر وبين الحدوث على نحو خال من الخطأ ، كما يمكن أن يحدث لو قدر لتركيب الحلزون الذى يتحكم فى الوراثة أن يبقى سليما . ولكن هذا التحكم على المستوى

الاصعر لابد أن يسفر عن نتائج تتجاوز نطاق التنوعات بين الافراد . فلو أن جميع الكائنات المنتمية الى فئة ما (وخاصة الانسان) كانت مكونة من عناصر نموذجية فربما كانت النتيجة كئيبة الى حد ما ، ولكنها لا تكاد تصل الى حد المأساة . ولكن الحاجة الى عيوب تثبت أن الفرد هو ، اساسا ، مرآة الطبيعة ككل ، وبعبارة اخرى ، فان اللاشعور ليس الا جملة العيوب التى تكتسبها الجزيئات الوراثية باطراد خلال مجرى تاريخها الطويل المضطرب . أما بالنسبة الى الشعور فانه يشغل اساسا نسبة كبيرة الى حد ما من تلك المجموعة الهائلة من المعلومات الموجودة فى كل فرد ، والتى يمكن أن يلتفت نظره اليها . ومن ثم ، فان النمو المطرد فى الفكر الشعورى ، خلال مجرى التطور ، انما هو نتيجة تفصيل تركيبى فى نقل الشفرة المرتبطة بتطور الجهاز العصبى المركزى ، وهو تفصيل يعكس تفاعلات الجهاز مع العالم الخارجى . ويمكن ، اذا نظرنا الى الشعور واللاشعور فى هذا المجال الجديد ، أن نردهما الى حقيقة اساسية واحدة ، هى تركيب جزيئى فى أعماق سياقه الكونى .

اما بالنسبة للفرض القائل بأن الحياة ليست قائمة على الكربون ، بل على السليكون ، فهو فرض لا يمكن دعمه اليوم . ويرجع ذلك على وجه التحديد الى أن قابلية التكيف اكبر كثيرا فى الجزيئات ذات الروابط المتقاربة منها فى مركبات السليكون مهما كانت سعة حيلة هذه المركبات . والواقع ان هذه الطائفة من الجزيئات تتجلى فيها تلك الخاصية التى هى شرط أساسى للحياة ، واعنى بها استقرارا يكفل المحافظة على الحياة ، مقترنا بعدم استقرار نسبى يمكنها من الاستمرار فى البقاء عند حدوث اضطراب من الخارج . أى أن نوعا من المرونة هو عين الشرط اللازم للحياة . وفضلا عن ذلك ، وهذا يقدم لنا دليلا آخر ، فان النيازك لا تحتوى على كمية كافية من مركبات السليكون ، ومن ثم فانها تشير الى تطور كيمائى قائم على الكربون .

٥ ـ منشأ الأفكار :

من الواضح أن كل شخص يحتوى فى داخله على منبع للأفكار ، وهذا بلا شك هو السبب الذى جعل ذهن « ليوفيبوس » و « ديموقريطوس » و « بارمنيدس » و « هرقليطس » ، وغيرهم ، يتفتق على ما يبدو تلقائيا عن أعمق المفاهيم لا اكثرها فطرية ، وهى المفاهيم التى لم يكف الفكر البشرى مطلقا عن التشكل على أساسها . فهؤلاء الفلاسفة قد أرسوا قواعد أفكارنا عن المكان ، والاتصال ، والانفصال ، والزمان ، والتطور . ولا يكاد يوجد شك فى أن ما يسمى ببصيرتهم الخلاقة يرجع الى انبعاث قوى صادر عن لا شعورهم ، بقدر ما يرجع الى عملية استدلال منطقية قائمة على الملاحظة الموضوعية للأشياء ، ألم يؤمن « اينشتين » نفسه ، كما جاء على لسان

« ماكس بورن » ، بقدرة العقل على الحدس فيما يتعلق بالقوانين المتحكمة فى خلق الله للكون (١) ؟ بل لقد تمكن مفكرون كبار آخرون ، من بينهم أفلاطون صاحب نظرية الحقيقة الموضوعية للأفكار ، وسبينوزا ، وليبتز ، تمكنوا قبل اينشتين بوقت طويل من ادراك وجود آلية مماثلة .

كذلك قام لوكريتيوس ، وهو معاصر ليوليوس قيصر ، بالتعبير على نحو رفيع عن اعتقاده فى وحدة الظواهر الطبيعيـة ، اذ أكد ، فى محـاولة للتركيب جديرة بالاعجاب ، ان الأرض ، والقمر ، والنجوم ، وجميع الكائنات الحية ، نتاج لآلية واحدة مرتبطة بحركة الذرات ، التى تتألف من نوع واحد من المـادة وتتحـرك فى الفضاء .

والواقع أن الفرق بين الانسان وجميع الكائنات الحية الأخرى يرجع فى النهاية الى قدرته الكبرى على اظهار أعماق لاشعوره ، أى أنه يمكننا القول أن الحيوانات افضل تكيفا مع الطبيعة ، بمعنى أن قدرا أقل من لاشعورها طليق ومتاح للفهم . ومن الواضح أن وجهة النظر هذه تنطوى بالضرورة ، على الفكرة القائلة بانه لا يوجد اختلاف نوعى فى جوهر حياتها ذاته . على أن تغير المدى الذى يتحول اليه اللاشعور الى شعور فى عالم الحيوان يجعل الانسان ، وخاصة عندما يكون عبقريا ، مختلفا عن الحيوانات الى درجة يصبح معها هذا الاختلاف فعلا مناظرا لاختلاف نوعى بين الانسان والحيوان .

٦ ــ التضامن والتنازع :

من الواضح أن استمرار الخط الممتد بين الماضى السحيق وبين حيـاة الفرد المعاصر يرجع الى قدرة على التكيف والارتقاء ، وهى قدرة أتاحت التغلب على عدد لا نهاية له من العقبات القادرة على وضع نهاية للتطور ، أثناء عملية الانتخاب الطبيعى . ومن ثم فان البقاء يتوقف أساسا على أبادة هائلة للحياة ، ولابد بالضرورة أن يكمن فى الكائنات الحية شعور دفين بالعدوانية ، وبالتالى ، فان التضامن والتنازع مرتبطان فى عملية التطور ، وهذا يتفق مع رأى هرقليطس ، الذى قال ان عملية الوجود كلها قد تتعرض لخطر الفناء لو قدر للتنازع بين الانسان والآلهة أن يختفى .

فلنتصور مجموعة من الافراد لا تحكمهم آلا قوى التجاذب أو التضامن ، فهذا التصور يساعدنا على فهم الحاجة العميقة الى التنازع . ذلك لأن الوعى الفردى

(١) Science et Synthèse (Coll, Idées, N.R.F., Paris, Gallimard, 1967.

فى هذه الحالة ينزع الى الاختفاء ، واذا قدر لهذه العملية ان تطول ، فان الفـرد قد يختفى باطراد ، ليحل محله وعى اعلى ، ولكن اية حركة جماعية تضم دائما تنافرا يعيد النظام الأصلى للأشياء ، ويكفل بقاء عنصر الوحدة ، ومن هنا فان قوى التنافر هذه ، اللازمة لتكوين الكائن الحى فى جميـع مراحل نموه التطورى ، تكفـل له الوقاية . ويمكننا ، من وجهة النظر هذه ان نفهم ذلك التوازن العجيب بين القوى المتضادة ، وذلك عن طريق ارجاع السمة المتحكمة فى سيكولوجيا الحيوان والانسان الى مبدأ التماثل . ومع ذلك فان الكائن العضوى يتألف من آلاف الملايين من الخلايا التى تخلت بدورها ، عن طابعها الذاتى لتكون نظاما جماعيا ذا طبيعة اعلى . ومن ناحية اخرى فان هذه الخلايا تعيش فترة حياة محدودة . وقد تعلمت التضامن لأن كلا منها متخصص الى حد كبـير ، بحيث انها تعتمـد بعضها على البعض بدرجة كبيرة . والواقع انها تخلت عن الحياة بالمعنى الدقيق للكلمة ، وان كان يمكن فصلها عن الفرد وزرعها فى أوان زجاجية ، اذا توافرت ظروف ملائمة .

٧ ـ الجنس :

البروتوزوا (الحيوانات الأولية) وهى كائنات عضوية وحيدة الخلية ، تتضاعف ، ومن ثم تبقى وتتكاثر دون تدخل ظواهر جنسـية (١) . أما بالنسـبة الى التكاثر الجنسى فيبدو أنه احد مظاهر التطور الذى يسـمح بتجـدد الارث الوراثى ، اى تجـدد النظام فى حالة من الفوضى المطردة ، وفى حالة الجنس البشرى ، حيث يكون للنظـام ، الراجع الى التطور الأعلى للشعور ، اهميـة بالغة ، فان الميل الى العشق يحدث نوعا من التفاعل الذى يتعارض مع التفاعل المميز للجماعة ، على الرغم من انه ينطوى على عدد قليل من الأصداء . واذا طبقنا مبدأ التمـاثل هنا أيضـا فينبغى أن نعترف بأن الغاية الحقيقية لهذه الحالة هى تخليص الفـرد من حالته الشعورية ، التى يمكن أحيانا أن تبدو عبئا ثقيلا ، وادماجه فى الـكون على نحو أكمل ، ولكن هذا النوع من الفوضى القصيرة الأجل يمكن أن يقترن بالاخصاب الذى يتجه نحو النظام .

ومن هنا ، فان ثنائية العشـق والتوالد ينبغى الا ينظر اليها على أنها علاقة بسيطة بين علة ومعلول ، وتكون الغاية الوحيدة فيها للعشق هى ضمان اسـتمرار الجنس . بل هى فى الواقع تمثل توازنا مزدوجا ، على نسق يتسم بالفوضى والنظام ، وهذا التوازن لا يكفل فقط بقاء النوع ، بل يكفل أيضا بقاء الفرد ذاته . فالعشق ،

(١) P. Brien, Scientia, 6th Series, 1, 1964.

اذ يمنح الحياة فرصة للافلات من النظام ، يبعد عن خاطره شبح اللحظة المحتومة للمـوت .

٨ ـ النوم والأحلام :

عندما يستغرق الانسان في النوم فانه يتحرر تماما من التفاعل مع الأفراد الآخرين ، ومن ثم يجد نفسه في حالة مثالية لاعادة بناء شخصيته الخاصة ، أعنى نظامه الذاتى ، وهذه احدى الخصائص الرئيسية المميزة لهذه الحالة العجيبة .

وكما أن الاخصاب والعشق يكمل الواحد منهما الآخر ، فان النوم والأحلام وثيقا الارتباط على ما يبدو ، ويمثلان ، على التوالى ، النظام والدخول عن طريق الاخلال بالنظام الى عالم أكبر . وهذا النوع من التحرر من ضرورات الشعور يتيح تغلغلا أعمق فى عوالم اللاشعور ، ومن ثم فانه يؤدى أحيانا الى فهم أدق للشـفرة الوراثية ، ويؤدى بالتالى الى اتصال أكثر فاعلية بتركيب الكون .

٩ ـ ظاهرة الدين :

تقوم مشكلة أصول مذهب الالوهية على ما يبدو بدور طبيعى مماثل فى النمط الجديد ، فالاله الذى هو أزلى ولانهائى فى آن واحد هو جوهر الكون ، ويشـكل بالنسبة للانسان مركزا رائعا للاستقطاب ، اى للنظام الشامل .

ولكنا نجد ، من ناحية اخرى ، أن الجانب المكمل للمشكلة ، الذى لا ينفصل عنها ، أعنى به القول بوجود الشيطان ، لا يمثل الا مطلب الوعى المحدود والمقيد داخل نطاق الزمان . فعلى حين أن التأمل الالهى يلبى حاجة الفرد الى التركيب الشامل فان الشيطان يبقيه محصـورا فى نطاق تحليلى ضيق . ومن هنـا ، فان العاطفة الدينية تمثل احد المظاهر الايجابية الكبرى للحياة فى مواجهتها للنزعة المضادة . وهكذا ، فانه لا معنى للقول بأن تأكيد وجـود الالوهية انما هو فقط نتيجـة قلق الانسان ، الضائع فى كون لا يفهمه ، تتحكم فيه الصدفة وحدها . فليس هناك ، اذن ، أى مذهب يستطيع ان يتطلع الى الغاء نزعة ترتبط بتركيب الانسان ذاته .

١٠ ـ استنتاجات نهائية :

يتميز النظام النموذجى المقترح هنا بانه يقدم الأساس اللازم لايجاد مركب -

لبعض الخصائص الأساسية المميزة لعلم النفس . وهو يدمج مظاهر النشاط الحيوانى والبشرى الهامة ، المتناقضة ظاهريا ، فى مبدأ عام للتماثل ، يرتبط به طبعا قانون للحفظ يكون فيه مجموع العناصر المتضادة ثابتا . كذلك فان العالم المادى يعمل اساسا بطريقة مماثلة ، ولذلك ينبغى أن لا ندهش من التشابه بين المنهج المتبع فى كلتا الحالتين . فمن المعروف ، مثلا ، أننا لا يمكن أن نولد شحنة كهربائية موجبة دون أن نولد فى نفس الوقت شحنة سالبة مساوية ، وهذه الحقيقة مرتبطة بقانون لحفظ الشحنة الكلية فى الكون .

كذلك فانه لا يمكن فى الوقت الحاضر حصر انواع العيوب التى تقوم ، عن طريق التأثير فى التراكيب النموذجية لجزيئات الحامض النووى بالتحكم فى لاشعور الفرد . ولكن مقتضيات التنوع غير المحدود لهذه الانواع تفرض حجمها الهائل على الجزيئات الوراثية ، لأنها أى الجزيئات لابد أن تكون قادرة على خوض عدد كبير من التحولات دون أن تتعرض لكارثة . ومن هنا ، فإن الفرض القائل بأن العيوب التركيبية تلعب دورا أساسيا ، هذا الفرض ، على ما يبدو ، بسيط ومثير للتفكير . ومع ازدياد دقة اساليب الملاحظة فانه ينبغى علينا ، فى السنوات المقبلة ، أن تكون قادرين ، على نحو يزداد باطراد ، على اثبات صحة هذه النظرية . وهكذا يصبح اللاشعور فى متناول أساليب فنية أخرى غير أساليب التحليل النفسانى .

هذه الملاحظات ، التى تضفى على التضامن والتنافر نفس الطبيعة التى تضفيها على الالهى والشيطانى ، توضح عظمة الموقف الانسانى ومأساته فى نفس الوقت . ولكن انطباع الجمال الذى تعطيه هذه البساطة يضفى علينا شعورا بالسمو . ذلك لأن اقامة علاقة على مستوى كونى بين الجزيئات والشعور لا تنزل الانسان الى مستوى الآلة ، ومن ثم فانها تساعد على القاء الضوء على خلاف ظل قائما منذ أبعد العصور . بل أن الفصل بين الجزيئات والحياة والروح انما هو فى الواقع تدبير على مستوى رفيع . فالحياة ظاهرة تاريخية أرضية تتميز بسموها الواضح على المستوى الكونى . ولو توغلنا فى أعماقنا لما أمكننا أن نراها ككل . وعلى الرغم من أننا لانزال بعيدين كل البعد عن ادراك هذا الأفق ، فما من شك فى أننا أصبحنا بفضل طرقنا الحديثة للتحليل على نطاق جزيئى وذرى ، فى موقف يسمح لنا بتوقعه ، ويسمح لنا ، قبل كل شىء ، بأن نتوقع أننا سوف تكون قادرين على التعامل معه على نحو أفضل .

بل ان الأخلاق نفسها يمكن النظر اليها الآن فى ضوء مختلف ، ذلك لأن الإنسان ، أعنى كل انسان على قيد الحياة اليوم ، لا يبلغ من العمر ما تشير اليه سنوات حياته ، فانه يبلغ من العمر نحو خمسة آلاف مليون سنة . فالأطفال مسنون دون أن يكونوا متقدمين فى السن ، هم كائنات معجزة تضم جيناتها (حاملات

الصفات الوراثية) كونا مصغرا ، ومن ثم فهم يمثلون العظمة الالهية ، هذه النظرة تضع الحياة الشعورية فى موقع الصدارة من الطبيعة ، وبذلك لا يعود الانسان مخلوقا ضعيفا فى الكون لأنه ، من ناحية ما ، عالم صغير بذاته ، ولهذا السبب فان احترام الحياة ينبغى أن يكون شريعتنا . ولكن كيف يمكننا أن نكفل هذا الاحترام ، وأى توازن يمكن أن نجده فى هذه النزعات المتناقضة الموجودة داخلنا ، وما الذى سيؤول اليه مصير البشرية ؟ علينا فى الواقع أن ندرس هذه المشكلات مستقبلا فى سياق الاطار الذى حاولنا أن نحدده ، فهل نحن معرضون لخطر العيش فى تدهور حتى تبرد الشمس وتصبح الأرض المتجمدة غير ملائمة للحياة ؟ أم اننا سنقوم ، يوما ما ، بادماج لاشعورنا على نحو أكمل مع شعورنا ، ونصبح كالآلهة ؟ وفى هذه اللحظة ألن يبلغ تركيبنا درجة من الكمال تنزع معها الى التحلل التام ؟

ان النظريةالقائلة بأن الشعور البشرى هو جوهر الكونذاته ،وهى النظرية التى اقترحها نوريش (١) بدوره ، تؤدى الى شكل كامل من أشكال الوحدانية ، يذكرنا ، الى حد ما ، بالآراء القيمة ، التى قالت بها المدرسة الايلية فى اليونان ، منذ ٢٥٠٠ سنة .

وكما كتب يوجين ويجنر (٢) ، فان الفلاسفة الذين لديهم ذخيرة من الألفاظ أكبر مما لدى علماء الطبيعة ، يؤمنون بالكلمات أكثر من هؤلاء العلماء . وهذا يعنى قطعا ان الفلاسفة قد يكون لديهم اعتقاد واع بأن اللغة انما وجدت للتعبير عن مفاهيم تكمن فى الغريزة . أما علماء الطبيعة فانهم ينزعون الى بناء نظرياتهم على أساس مفاهيم أكثر بدائية ، أى ، على وجه التحديد ، المفاهيم التى أشرنا اليها فى هذا البحث ، وعلى اية حال فان الوثوق فى الكلمات التى لا تعدو أن تكون تعبيرا عن المعلومات المحتواة فى الانسان ، يدل اساسا على أن المفاهيم تنبعث مباشرة من اللاشعور .

فلنتساءل الآن ان كانت الآراء الحديثة تستطيع ، الى حد ما على الأقل ، فض النزاع القديم بين مؤيدى الارادة الحرة ومؤيدى الحتمية المطلقة . يبدو لى أن الاجابة بالايجاب . فالارادة الحرة هى تعبير عن الأثر الرجعى الذى تحدثه العلاقة بين الشعور واللاشعور فى فرد ما ، حيث يكون مجموع هاتين الكلمتين ثابتا تقريبا . ومن الواضح أن هذه الارادة الحرة يمكن أن تتفاوت داخل فئة واحدة ، ولابد أن تقل الى الصفر عندما ننتقل من الانسان الى الأنواع الأكثر بدائية . وهكذا يمكن الجمع بين ثنائية الحتمية والارادة الحرة دون أن ينطوى ذلك على تناقض .

---

(١) R.G. Norrish, Journ. Roy. Inst. of Chem. p. 151, 1959

(٢) E. Wigner, Proc. Amer. Phil. Soc., 113, 95, 1969.

ولعل من الطريف في النهاية أن نبحث هل يمكن أن نعرف أين تقع الحياة في هذه السلسلة اللانهائية من الأحداث التي تؤدى من الجزيئات الحيوية الى علم النفس . ان انبثاق الكائن الحي لا يمكن ، كما رأينا ، فصل أى شيء فيه عن سياقه . فهل يمكن اختيار حد فاصل تتجلى بعده الحياة ؟ للاجابة عن هذا السؤال دعنا نبحث بايجاز شديد ظاهرة تجدد الحياة ، مع التركيز على اهمية التكون العضوى . ففي خطة البحث الرائعة التي اتبعها « بول بكيريل » (١) في فرنسا ، وفي بحوث « هينتون » (٢) التي أجراها في بريطانيا في وقت احدث ، وامكن ابقاء البذور ، والأشن ، والبويضات ، بل الحشرات ، في حالة حياة كامنة عن طريق تجفيفها تماما وحفظها في فراغ في درجات حرارة قريبة من الصفر المطلق ، وهكذا ، فان وقف الأيض (التحول الغذائي) تماما ووجود تغيرات كبيرة بشكل واضح في التراكيب الخلوية لا يحولان دون تجدد الحياة . وهذا يعنى أن التكون العضوى هو العامل الأساسى اللازم للحياة . ولكن ينبغى علينا بعد ذلك أن نتساءل : في أية مرحلة تبدأ الحياة في الاختفاء ؟ الواقع أن التجارب القائمة على المغناطيسية الخلوية ، التي أجريت في معملى على اشن جففت منذ وقت يرجع أحيانا الى مائتى سنة ويرجع أحيانا أخرى الى الوقت الحاضر ، هذه التجارب لم تقدم بعد اجابة على هذا السؤال الأساسى الذى مايزال موضع دراسة . والواقع أن هذه الطريقة في النظر الى الأمور تتميز بميزة واضحة ، وهى أنها تشير الى أن التركيب الفاصل هو التركيب الذى يتيح للأيض اعادة بناء نفسه ، وربما توطيد نفسه ، وذلك اذا ما سمح لنا بالاعتقاد بأن البقاء والحياة لا يمكن تمييزهما عند الحدود الأولى للحياة .

والمأمول ان أكون قد أوضحت على نحو افضل ان الكونى والعضوى هما في جوهرهما متلازمان ، على النطاق دون المجهرى ، والمجهرى ، وعلى النطاق المكبر . كما ارجو ان أكون قد أوضحت أن الكون ، بما فيه من ميل الى التركيب والبناء ، يتركز حول الحياة الى حد ما (٣) .

---

(١) Paul Becquerel, Comptes rendus, Paris, 231, 261, 1950.

(٢) H.E. Hinton, Proc. Roy. Soc. B., 171, 43, 1968.

(٣) E. Kahane, «La vie n'existe pas» Paris, Les éditions de l'Union Rationaliste, 1962 ; I. Prigogine, «Structure, Dissipation and Life» in «Theoretical Physics and Bilogy», Ed. M. Marois, Amsterdam, North Holland Publishing Co., 1969.

الكاتب : جـــول دوشـــــين

- ولد ببلجيكا عام ١٩١١
- دكتور فى العلوم ، وأستاذ بكلية العلوم بجامعة لييج، ورئيس قسم الفيزياء الذرية والجزيئية بها .
- نائب رئيس قسم العلوم بأكاديمية بلجيــكا الملكية ، ورئيس الجمعية البلجيكية للفيزياء الحيوية .
- مؤلفـــاته : ٢٠٠ بحث فى مجالات الكيمياء التركيبية ، الفيزياء الجزيئية ، فيزياء الجوامد، الكيمياء الكونية، الفيزياء الحيوية .
- كما أشرف على نشر عدة مؤلفات أخرى .

المترجم : الاســــتاذ زكريا فهمى

- بكالوريوس علوم ، مشتغل بالبحث العلمى
- اشترك فى ترجمة كتاب تاريخ البشرية ، التطـــور العلمى والثقافى فى القـرن العشرين .
- له كثير من الابحاث فى المجلات العلمية

ثبت

المقال وكاتبه	العنوان الاجنبى واسم الكاتب	رقم العدد وتاريخه
المعارف والعلوم فى حوض البحر الابيض المتوسط بقلم : فرنشيسكو جابريلى	Knowledge And Attainments In the Mediterranean by Francesco Gabrieli	العدد : ٧١ خريف ١٩٧٠
السياسة العلمية واساطيرها بقلم : جين جاك سالومون	Science Policy And Its Myths by Jean-Jacques Salomon	العدد : ٧٠ صيف : ١٩٧٠
المرآة المهشمة بقلم : راءول ارجمان	Le Miroir En Miettes by Raoul Ergman	العدد : ٦٨ عام : ١٩٧٠
العمل والعقاقير والثورة التمرد على الزمان بقلم : فريد كالورين	Of Work, Drugs And Revolution The Revolt Against Time by Fred Caloren	العدد : ٧٠ صيف : ١٩٧٠
من الجزيئات الحيوية الى علم النفس بقلم : جول دوشين	From Biomolcules To Psychology by Jules Duchesne	العدد : ٧٠ صيف : ١٩٧٠

المجلة الدولية للعـــلوم الاجتماعية

مجلة دولية تصدرها هيئة اليونســـكو الدولية ، لتوفر من الدراسات الاجتماعية ما هو ضرورى ولازم لتنظيم المجتمعات وتعمق مشكلات العصر ، والوصول الى حلول تواجه المستقبل ٠

تصدرها أربع مرات فى السنة :

يناير ـ ابريل ـ يوليو ـ اكتوبر

صدر العدد الاول يوم الاثنين ١٢ اكتوبر ١٩٧٠ ، وصدر العدد الثانى يوم الثلاثاء ٥ يناير ١٩٧١ ، والثالث ٥ ابريل ١٩٧١ ، بسعر اقل من التكلفة ٠

عشرة قروش او مايعادلها ٠

الاشتراك ٤٠ قرشا ، خلاف مصاريف البريد ٠

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو ٠
ومركز مطبوعات اليونسكو ٠

وتصدر مجلة رسالة اليونسكو شهريًا

وتباع باربعة قروش ، بسعر يقل عن تكلفة كل عدد
ولضمان الحصول على هذه الاعداد بانتظام يمكن للهيئات
والمعاهد العلمية والافراد الاشتراك فى كل منها باربعين قرشا
فى العام ، عدا مصروفات البريد •

والاشتراك الكامل لكل هذه المجلات هو ١٩٠ قرشا فى
العام ، بخلاف اجرة البريد •

مجلة اليونسكو للمكتبات

اول طبعة عربية من المجلة الدولية التى تصدرها هيئة اليونسكو عن المكتبات ، والخدمة المكتبية ، والعناية بشؤون الكتاب •

تصدر اربع مرات فى السنة فى الخامس من شهور :

فبراير ـ مايو ـ اغسطس ـ نوفمبر

حيث يتناول خبراء الكتب والمكتبات فى العالم شؤون المكتبات والخدمة المكتبية وتيسير القراءة لكل الاعمار والمستويات •

صدر العدد الاول فى نوفمبر ١٩٧٠
وصدر العدد الثانى فى فبراير ١٩٧١
ويصدر العدد الثالث فى مايو ١٩٧١
فى قرابة مائة صفحة بـ ١٠ قروش

الاشتراك السنوى اربعون قرشا غير مصروفات البريد •

تصدر عن : مجلة رسالة اليونسكو
ومركز مطبوعات اليونسكو